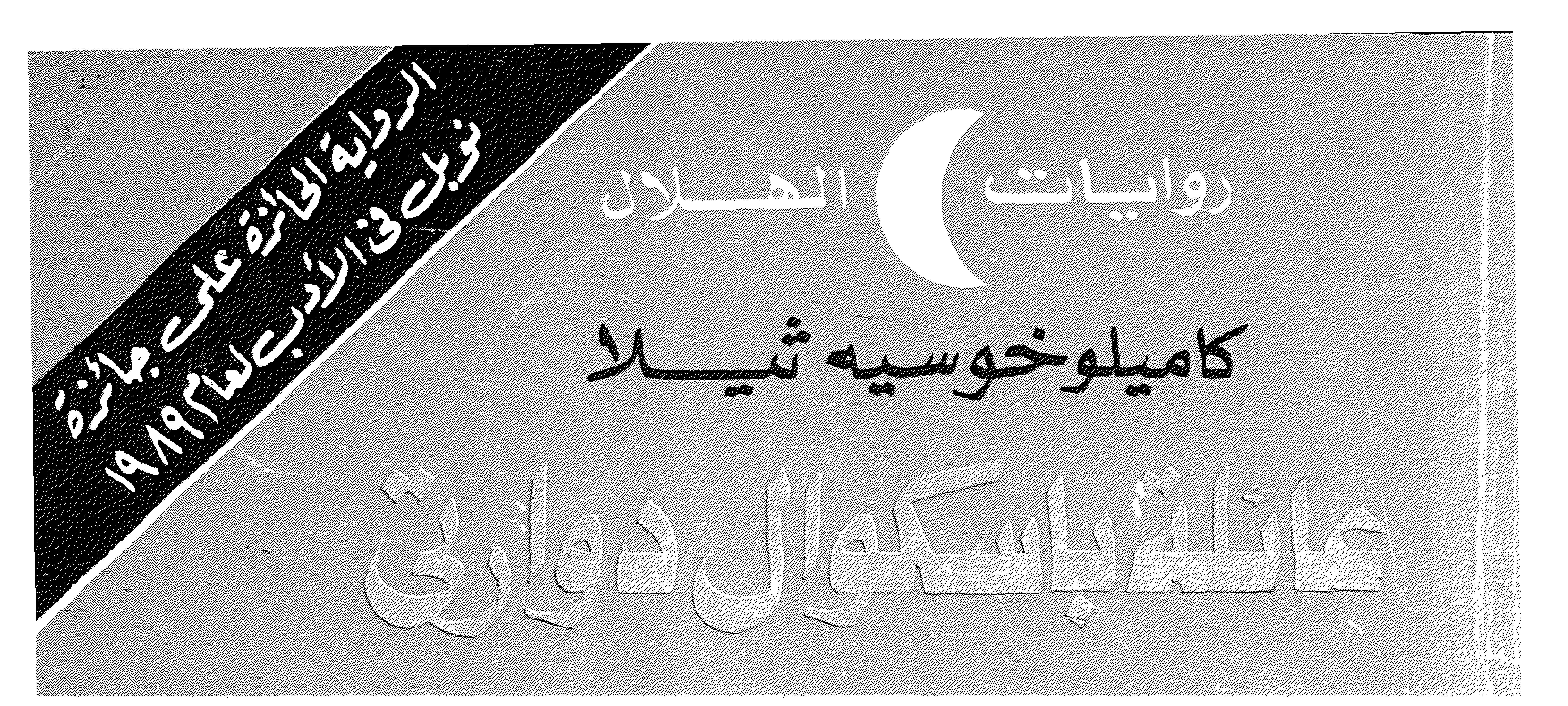
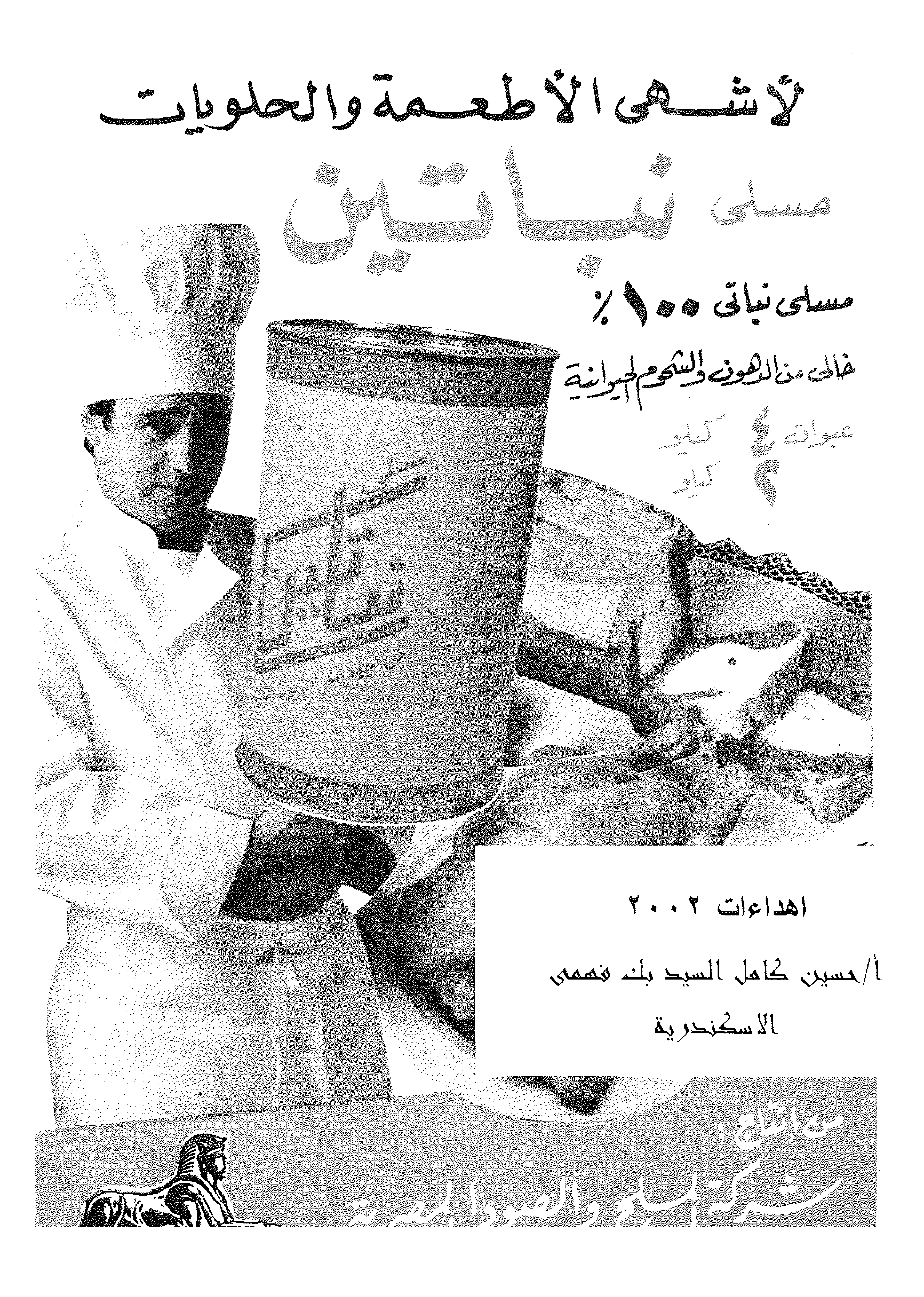

روايات الهلال
كاميلو خوسيه ثيلا
عائلة باسكوال دوارتي
الرواية الحائزة على جائزة
نوبل في الأدب لعام ١٩٨٩



لأشهى الأطعمة والحلويات
مسلى نباتين
مسلى نباتى ١٠٠٪
خالى من الدهون والشحوم الحيوانية
عبوات ٤ كيلو
٢ كيلو
اهداءات ٢٠٠٢
أ/حسين كامل السيد بك فهمى
الاسكندرية
من إنتاج :
شركة الملح والصودا المصرية

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩١ نوفمبر ١٩٨٩
ربيع الثاني ١٤١٠ هـ
NO. 491 NO. 1989

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

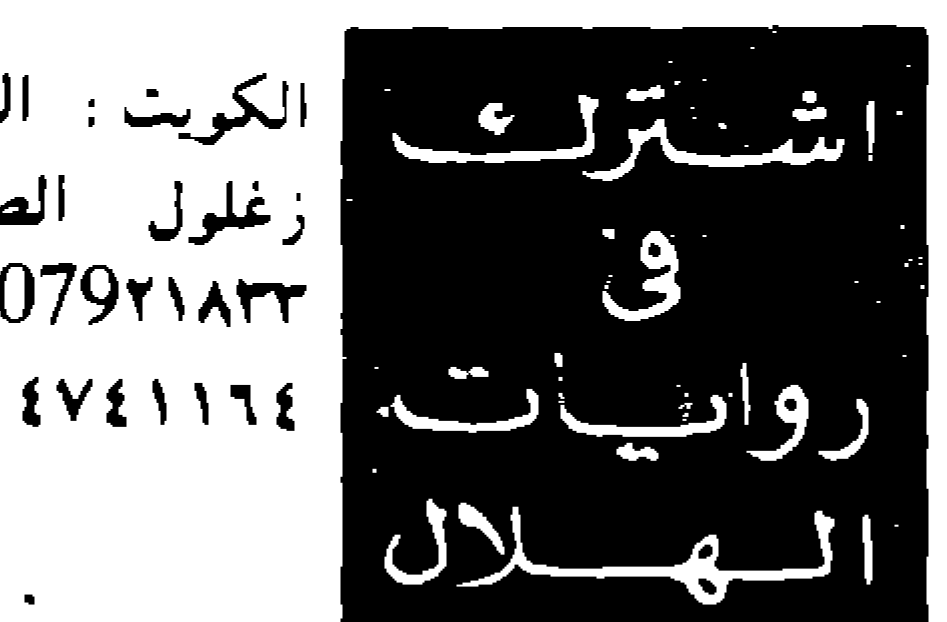
● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش -

لبنان ٧٠٠ ليرة . الاردن ٦٠٠ فلس . الكويت ٥٠٠ فلس . العراق ٢٥٠٠ فلس . السعودية ٧ ريالات . البحرين ١٢٠٠ فلس . الدوحة ٨ ريالات . دبى ٨ دراهم . أبوظبى ٨ دراهم . مسقط ٨٠٠ بيزة . تونس ١٦٥٠ مليما . المغرب ٢٠ درهما . غزة والضفة ١٢٥ سنتا . الجمهورية العربية اليمنية ٨ ريالات . جمهورية اليمن الديمقراطية ٢ دولار . ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة . لندن ١,٥٠ جك



الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص . ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

المحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

عائلة باسكوال دوارتى

تأليف

كاميلو خوسيه ثيلا

" الحائز على جائزة نوبل فى الأدب

لعام ١٩٨٩ "

ترجمة

د. حامد أبو أحمد

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة للرواية الاسبانية
LA FAMILIA DE PASCUAL DURATTE

تأليف

CAMILO JOSE CELA

قبل أن تقرأ ..

كاميلو خوسيه ثيلا
وجائزة نوبل ١٩٨٩

بقلم : د . حامد أبوأحمد

عندما علم كاميلو خوسيه ثيلا بفوزه بجائزة نوبل في الآداب فعل مثلما فعل العام الماضي أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، إذ لم يغير أي شيء من عاداته اليومية ، وقال : « إنها شيء هام جدا ، ولكن لا ينبغي أن يغير الإنسان من عادته » ، وبالفعل فقد ذهب في نفس اليوم إلى الندوة التي تعقد بمبنى التليفزيون ، وتنقل على الهواء مباشرة ، ويقدمها مقدم البرامج التليفزيوني الشهير خيسوس إرميدا ضمن برنامج طويل (حوالي ساعتين من الرابعة حتى السادسة مساء) عنوانه « على طريقتي » . وقد قال للمجتمعين في هذه الندوة أو المسامرة : « عندي موعد على العشاء في الغد وقد أخبرتهم أني ذاهب ، وكل ما سيحدث هو أني سوف آكل الضعف ، وكان من المقرر أن أحضر برنامج إرميدا وها أنتم ترونني بينكم ، لا ينبغي أن يفقد الإنسان رباطة جأشه . يجب أن يكون خالدا » ، وفي المساء كان عليه بصفته عضوا في أكاديمية اللغة الأسبانية (المجمع اللغوى) أن يحضر الاجتماع الدورى كل خميس ، وعندما أزف موعد الاجتماع وكان ساعتئذ في مؤتمر صحفي بفندق ميحيل أنخل في مدريد قال : « إن

الواجب هو الواجب » ثم أضاف في دعابة : « ولا تنسوا أن هذا هو راتبي الثابت الوحيد » . وفعلا توجه إلى مبنى الأكاديمية ، بجوار متحف البرادو الشهير ، في صحبة الكاتب الأكاديمي جريجوريو مارانيون الذى كان قد أهداه في عام ١٩٤٨ كتابه « رحلة إلى القرية » . وهكذا عقدت الأكاديمية جلستها العادية وكأنه يوم عادى ، وإن كان الأكاديميون قد أظهروا فرحهم الشديد وسعادتهم الغامرة بحصول زميلهم كاميلو على أرفع وأشهر جائزة عالمية .

ويبدو أن كاميلو خوسيه ثيلا كان يحلم بهذه الجائزة منذ شبابه المبكر ، فعندما كان عمره خمسة وعشرين عاما ، وعلى وشك أن يموت بداء الصدر قال لصديقه ثيسار جونثاليث روانو في مقهى خيخون الأسطورى : « إسمع ياثيسار ، أنا مستعد أن أدفع من أجل جائزة نوبل كل الأموال التى تمنحها نوبل » لكنه الآن ، بعد حوالى ثمانية وأربعين عاما من هذه الواقعة ، لن يدفع شيئا من أجل نوبل ، وإنما سوف يتوجه إلى استكهولم عاصمة السويد يوم ١٠ ديسمبر القادم كى يتسلم جائزته ويلقى كلمته في الأكاديمية السويدية خلال الاحتفال المهيب الذى يقام بهذه المناسبة . وفي هذا الصدد صرح قائلا : « بالطبع سأكون حاضرا ، وسوف أرتدى البدلة الرسمية التى تتطلبها المناسبة » .

لم يحصل على أرفع جائزة إسبانية

ومن المفارقات العجيبة أن الرواية التى أهلته للحصول على جائزة نوبل ، وأشادت بها لجنة الأكاديمية السويدية ، هى روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارتى » تقدم بها عام ١٩٤٣ للحصول على الجائزة القومية للأدب ، في أسبانيا فردتها له لجنة المحكمين دون أن تكلف نفسها فتح المخطوط ، وعندما سئل ثيلا عن ذلك يوم حصوله على الجائزة قال : « إن هذا يدل

على أن الإنسان لا يجب أن يتقدم للجوائز » ، كما أنه لم يحصل على أرفع جائزة تمنح لكتاب اللغة الأسبانية في كل من اسبانيا وأمريكا اللاتينية وهي جائزة « ميجيل دى سرفانتيس » صاحب القصة الشهيرة « دون كيخوته » ، وإن كان قد حصل على الجائزة القومية للأدب عام ١٩٨٤ ، وعلى جائزة أمير استورياس (لقب ولى العهد دون فيليب) للآداب عام ١٩٨٧ ، ولكنهما جائزتان محليتان ، ولهذا تكلم ثيلا كثيرا يوم فى مؤتمراته الصحفية عن الجوائز ، وعن داء الحسد الذى يرى الأسبان أنهم مصابون به ، فقال عن الجوائز : « إذا كانوا لم يمنحونى جائزة سرفانتيس فهذا يدخل ضمن التقاليد الأسبانية ، مثلما يُقتل آل كيندى فى الولايات المتحدة الأمريكية . لقد كنت أخشى أن أتحول أيضا إلى مرشح دائم لجائزة نوبل . إن الجوائز لم تعجبنى أبدا ، وخاصة تلك التى يجب على المرء أن يتقدم لها ، لقد أعطونى الجائزة القومية للأدب متأخرة عن موعدها أربعين عاما ، وهذا لا يعنى أنى غير سعيد بجائزة نوبل ، إن جائزة سرفانتيس لاتشغلنى ، فليفعلوا ما يريدون » .

وفيما يتعلق بأوضاع الكتاب فى أسبانيا ، وأنه لا كرامة لنبى فى وطنه عتب على الصحافة الأسبانية أنها لم تكن تذكره ضمن المرشحين لجائزة نوبل ، وقال إن الأسبان فيهم سذج كثيرون يهللون ويصفقون عندما يدور الحديث عن كاتب أنجلوسكسونى أو عن كتاب من بلدان أخرى لكنهم لا ينظرون أبدا إلى ماحولهم » ، وقال : « إن أسبانيا بلد جميل جدا وشديد المفارقات » .

وبحصول ثيلا على جائزة نوبل يصبح خامس الحاصلين عليها من أدباء أسبانيا وهم :

١ ـ الكاتب المسرحى خوسيه إتشيجاراى (١٨٣٢ ـ ١٩١٦ م) الذى فاز بها عام ١٩٠٤ ، ومن أشهر أعماله

« زوجة المنتقم » ، ومن العجيب أن بعض أبناء جيله عندما علموا بفوزه بالجائزة نظموا مظاهرة ضد هذا المنح .

٢ ـ الكاتب المسرحي خاثينتو بينابينتي (١٨٦٦ ـ ١٩٥٤ م) وقد فاز بها عام ١٩٢٢ ، ومن أشهر أعماله مسرحية « الدنيا مصالح » ، و« المدنّسة » ، وهما مترجمتان إلى اللغة العربية .

٣ ـ الشاعر خوان رامون خمينيث (١٨٨١ ـ ١٩٥٨ م) ومن أشهر أعماله الشعرية « يوميات شاعر حديث الزواج » ، وهناك كتابه الشهير « حمارى وأنا » من الشعر المنثور . وقد فاز بالجائزة عام ١٩٥٦ .

٤ ـ الشاعر بيثينتي ألكساندر (١٨٩٨ ـ ١٩٨٤ م) وهو من جيل ١٩٢٧ ، وزميل لوركا وخورخي جيين ، ومن أبرز أعماله « عاطفة الأرض » و« سيوف مثل الشفاة » . وقد حصل على الجائزة عام ١٩٧٧ .

مسيرة حياة

وقد ولد كاميلو خوسيه ثيلا في قرية إيريا فلافيا التابعة لمركز بادرون في محافظة لاكورونيا ، وهي محافظة تابعة لمنطقة جاليسيا (أو كما كان يسميها العرب جليقية) في شمال أسبانيا في الحادى عشر من شهر مايو عام ١٩١٦ ، من أب أسباني وأم إنجليزية . وعندما كان عمره تسع سنوات انتقلت الأسرة إلى مدريد ، ومنذ أن كان صغيرا كانت ثقته بنفسه تسبب له الكثير من المشكلات ولهذا طرد من أربع مدارس ، ولكن أسرته كانت تشجعه وتساعده في أن يمضي إلى الأمام . وعندما حصل على الثانوية التحق بكلية الطب في جامعة مدريد (كومبلتنسي) ولكنه قطع دراسته بهذه الكلية عندما وجد ميلا إلى الأدب . وكانت الحرب الأهلية الأسبانية قد بدأت عام ١٩٣٦ ، فانقطع عن الدراسة طوال فترة الحرب ، وكان قد أصيب بداء الصدر فرجع إلى قريته للاستشفاء ، حتى وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٣٩ ،

فعاد إلى مدريد والتحق بكلية الحقوق بالرغم من أنه كان يتجه بقوة إلى الأدب ، وفى عام ١٩٤٢ نشر روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارتى » . ثم نشر روايتين أخريين خلال عقد الأربعينيات هما « خيمة الراحة » (١٩٤٣) و« مسيرات لاثاريو دى تورميس وإحباطاته الجديدة » (١٩٤٤) وهما روايتان يقل مستواهما الفنى عن الرواية الأولى . وهذا من الأمور الغريبة فعلا ، أن تصبح روايته الأولى المنشورة ، وله من العمر ست وعشرون سنة هى من أهم أعماله إن لم تكن أهمها على الإطلاق ، ثم نشر كتابه الأول فى أدب الرحلات عام ١٩٤٨ ، وهو كتاب « رحلة إلى القرية » ، وهذه القرية هى بالفعل قرية واقعية مازالت تحمل أسمها العربى مكتوبا بحروف لاتينية ALCARIA ، وتتبع محافظة وادى الحجارة (وهو أيضا اسم عربى) الواقعة على بعد حوالى خمسين كيلومترا من العاصمة مدريد . وجدير بالذكر أن هذه القرية هى مكان الإقامة الدائمة حاليا لخوسيه ثيلا . وهذا الكتاب الأول فى أدب الرحلات أكمله ثيلا بكتاب ثان فى نفس الموضوع تحت عنوان « رحلة جديدة إلى القرية » صدر عام ١٩٨٦ .

وفى عام ١٩٥١ أصدر روايته الهامة « خلية النحل » . وظلت تتوالى كتب خوسيه ثيلا منذ عام ١٩٤٢ حتى الآن ، وبلغت فى مجملها حوالى مائة كتاب ، ما بين روايات (١٤ رواية) وكتب فى أدب الرحلات ، ذكرنا منها اثنين ، وهناك أيضا أعمال أخرى فى هذا المجال يحسن ذكرها مثل كتاب « يهود ومسلمون ، ومسيحيون » (١٩٥٦) و« الرحلة الأندلسية الأولى » (١٩٥٩) و« رحلة إلى برانس لاردة » . وبهذا نرى أن ثيلا فى هذه الكتب يحاول أن يغطى أرض أسبانيا من جنوبها إلى شمالها بحثا عن العادات والتقاليد والقيم وأنماط الحياة المتأصلة فى التربة الأسبانية منذ القدم ، ومنذ أن كانت أسبانيا بلدا ازدهرت على أرضها حضارات متنوعة ومختلفة من السلتيين إلى الفاندالوس ،

إلى الرومان ، إلى القوط الغربيين ، إلى العرب المسلمين .. إلخ .

ولخوسيه ثيلا كتب في الشعر ، وفي القصة القصيرة ، وفي المقال الأدبي ، والمقال الصحفي ، واللوحات التعبيرية ، والدراسات ، بل إن له كتابين يضمان كل ما عرف في أسبانيا من كلمات وتعبيرات جنسية أو سوقية وهما : « القاموس السرى » (١٩٦٨) ، و« دائرة معارف الشهوة » (١٩٧٦) وهو كتاب من مجلدين كبيرين ، وهذان الكتابان يضعان أيدينا على خاصية هامة من خصائص هذا الكاتب الأسباني ، وهي أنه يمثل خير تمثيل نموذج الإنسان الغربي الحالي المتحرر تماما من أي أعراف ، أو تقاليد أو قيم أخلاقية بالمفهوم الديني ، وله جمل مشهورة في مجال الجنس والنساء لا نستطيع أن ننقلها هنا ، ثم إنه يمثل النموذج الغربي في سلوكه اليومي ، يلتزم بالواجب وبالكلمة وبالفعل التزاما صارما ويحاسب نفسه على ذلك حسابا شديدا ولكنه في مجال السلوك الفردي يمضي على هواه ، فيصادق فتاة من عمر أبنائه بل أحفاده تدعى مادينا كاستانيو تصحبه في كل مكان لدرجة أنها حضرت معه لقاء الأكاديمية وجلست إلى جواره والسعادة تغمرها ، بينما زوجته العجوز الشهربة قابعة في البيت ، ومع ذلك لم ير زملاؤه في هذا ، وهم من كبار الكتاب والمفكرين ، ما يخدش الحياء أو يقلل من قيمة الرجل . ولا يرى المجتمع الأسباني أو الغربي بشكل عام أي عيب في ذلك ، فهذه طبيعة الحياة في المجتمعات الأوربية .

وخوسيه ثيلا من الكتاب المشهورين جدا في أسبانيا ، فكل الناس تعرفه ، من قرءوا أدبه ، ومن لم يقرءوا له كلمة واحدة ، فأنت تراه وتسمعه في كل مكان ، في التليفزيون والإذاعة ، وعلى صفحات الصحف والمجلات ، بل إن له أيضا نصيباً في المجلات التي تسمى بمجلات القلب . وله أصدقاء كثيرون من جيله ومن

الأجيالْ التالية ، ومن أشهر أصدقائه الحميمين الروائي بيو باروخا (من جيل ١٨٩٨) والفنان الأشهر بابلو بيكاسو وللأسف فإنهما ليسا على قيد الحياة حتى يشاركاه هذه الفرحة بالجائزة العالمية .

وفيما يتعلق بالكُتَّاب الآخرين الكبار من أبناء جيله أو من السابقين ، فعل خوسيه ثيلا مثلما فعل في العام الماضي ، الكاتب الكبير نجيب محفوظ . فمثلما قال محفوظ إن العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم كانوا أحق بالجائزة مني ، ذكر خوسيه ثيلا في المؤتمر الصحفي الذي أقيم بفندق ميجيل أنخل في مدريد الكتاب الأسبان الكبار الذين سبقوه ولم يحصلوا على جائزة نوبل مثل بيو باروخا ، وبينيتو بيريث جالدوس ، وڤايي انكلان ، كما ذكر أبناء جيله الذين مازالوا على قيد الحياة ويستحقون هذه الجائزة مثل ميجيل ديلييس ، وتورينتي بايستير ، وأنا ماريا ماتوتي وغيرهم .

أهمية أدبه

حدث ذات مرة أن تخلى كاميلو خوسيه ثيلا عن صفة التواضع التي هي من ألزم الصفات للإنسان ، فقال : « أنا أعتبر نفسي أهم روائي منذ جيل ١٨٩٨ ، وإنه ليرعبني أن أنظر إلى السهولة التي أكتب بها » ، وأحس ثيلا أنه تجاوز المطلوب بهذه الكلمات ، فنظر إلى الحاضرين وقال : « أرجو المعذرة لأن هذه العبارة فلتت مني » .

والحق أن ثيلا من الكتاب الذين يكثر الجدل حولهم ، فالبعض يعتبرونه أهم كتاب وروائيي ما بعد الحرب الأهلية الأسبانية ويرون أن روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارتي » (١٩٤٢) هي أول رواية تمثلت فيها ظروف تلك الفترة خير تمثيل ، بينما يرى الآخرون أنه كاتب فظيع ، مشغول أو بالأحرى يتسلى

بتقديم صورة كاريكاتيرية وبذيئة عن الواقع الأسبانى ، متيم بالتعبيرات الجافة والفضائح ، وأنه بعد أن قدم روايته « خلية النحل » عام ١٩٥١ سقط فى هوة التجريبية المجانية ، وقد استكثر عليه الشاعر الشهير رفائيل ألبرتى جائزة نوبل ، وقال : إن هناك آخرين غيره يستحقونها أكثر منه ، ولكن الروائى ميجيل ديليبيس (من أبناء جيله) قال : « لقد أحدث ثورة فى الرواية الأسبانية باستيعابه لعملية التحول من القرن التاسع عشر إلى الرواية الحديثة » ، وقال مانويل ألفار (من زملاء الأكاديمية) : « إنه أحد الروائيين الكبار فى لغتنا ، ومن جهة أسلوبه قد لانجد له منافسا » .

ومن الخصائص التى تميز ثيلا أنه غزير الإنتاج ، كما نرى من قائمة الكتب التى أصدرها ، وعندما كان عمره أربعين عاما كانت كتبه المنشورة تبلغ أكثر من عشرين كتابا

ولعل من أهم مميزاته أنه أحد صناع اللغة الكبار ، وهذه هى فضيلته الكبرى الأولى ، وسلاحه الحقيقى . فقد فاز بها فى كل المعارك ، منذ روايته الأولى حتى الآن . فقد رفض ثيلا منذ البداية مسألة « المضمون » كشكل من أشكال جذب القارىء ، ولهذا نجد المضمون فى رواية « عائلة باسكوال دوارتى » مختصرا جدا ، ويمكن أن نلخصه فى نصف صفحة مثلا ، وجاء شغله الأساسى فى اللغة والأسلوب والحبكة الروائية ، وتغيير الأنماط التقليدية المتبعة ، ولهذا فإن الكثيرين يرون أن الطابع الواقعى الذى تبدأ به الرواية هو واقعية فى الظاهر فقط ، ذلك لأن الرواية تتحول منذ الجريمة الأولى التى ارتكبها باسكوال دوارتى إلى مأساة (تراجيديا) حقيقية ، مأساة أخرى ، ونجد الكاتب فى هذه الرواية أيضا يكسر النسق التقليدى الأفقى للفن الروائى ، ولا نجد أنفسنا أمام نص واحد ، وإنما نحن أمام سلسلة من النصوص تصل بنا إلى خاتمة محددة فى كل كتابات ثيلا وهى ضرورة خلق « تحولات » للقضاء على الطابع

الدوجماطيقى (القاعدى الصارم) الذى ألقى على تاريخ اسبانيا ظلالا قوية من العنف واللا تسامح . ولهذا فإن ثيلا يعتبر من الكتاب الأوربيين ذوى الاتجاهات الراديكالية ، الذين يعبرون فى كتاباتهم عن رؤية راديكالية (جذرية إن صحت هذه الترجمة) وأخلاق راديكالية أيضا .

أما بطل رواية « عائلة باسكوال دوارتى » (واسمه هكذا أيضا) هو مجرم رغم أنفه ، أى أنه ضحية الظروف الاجتماعية المتدهورة ، والعلاقات الشائهة المحيطة به ، ولهذا تبدأ الرواية بهذه الكلمات « أنا ياسيدى لست سيئا ، بالرغم من أنه لا تنقصنى الأسباب لكى أكون كذلك ، فكلنا ، نحن البشر الفانين ، نأتى من أرومة واحدة عندما نولد ، ومع ذلك عندما نبدأ فى النمو يحلو للقدر أن يشكلنا وكأننا من الشمع ويوجه مصائرنا فى طرق متشعبة تؤدى إلى نهاية واحدة وهى الموت ، ثمة أناس يطلب منهم أن يمشوا فى طريق الأزهار ، وأناس يؤمرون بالمضى فى طريق الحرشف والصبار ، فهؤلاء يتمتعون بالنظرة الهادئة ، وهم فى أريج سعادتهم يبتسمون ابتسامة البرىء ، وأولئك يغالبون شمس البطحاء الحارقة ، ويقطبون الجبين مثل الوحوش دفاعا عن النفس . فهناك فرق كبير بين تزيين الجسد بأحمر الخدود والروائح العطرية ، وبين عمل هذا بالوشم الذى لايمكن إزالته بعد ذلك » .

وباسكوال دوارتى ، الذى مضى فى مسلسل الجريمة حتى قتل أمه فى النهاية ، يشبه إلى حد كبير بطل رواية الغريب لألبير كامى ، كما يشبه ، إلى حد كبير أيضا ، سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » لأديبنا العالمى نجيب محفوظ ، فكل منهما أصبح مجرما رغم أنفه ، وهو ضحية الظروف الاجتماعية التى مرت به ومر بها ، ومن العجيب أن كلا الكاتبين المصرى والأسبانى ينسبان إلى جيل واحد (ولد محفوظ علم ١٩١١ وثيلا عام ١٩١٦) وبدأت تظهر أعمال كل منهما فى وقت واحد تقريبا .

أما الرواية الأخرى التى رسخت بها قدم خوسيه ثيلا فى هذا الفن وتأكدت شهرته فهى رواية « خليةالنحل » التى صدرت عام ١٩٥١ ، وهى رواية تحكى صورة الحياة الفظيعة فى مدريد خلال فترة الأربعينيات ، وبالرغم من هذا الأساس الواقعى فإنها كانت رواية مجددة بكل معنى الكلمة حتى اعتبرها الكثير من النقاد أهم رواية صدرت فى أسبانيا منذ عام ١٩٣٦ حتى تاريخ صدورها ، وقد مكث المؤلف خمس سنوات فى كتابتها ، وهذه الرواية ـ كما ذكر المؤلف نفسه فى أحد كتبه النثرية ـ عبارة عن « قطعة من الحياة تروى خطوة خطوة بدون تحفظات أو مآسى غريبة ، أو تعاطف » إنها تمضى مثلما تمضى الحياة ، وبهذا يمكن أن يقال إنها تنسب إلى ما يسمى باتجاه « الشيئية » أو الموضوعية الصارمة التى تبدو قريبة من لغة العلم .

وفى هذه الرواية ينقل ثيلا الواقع ويغربله بتكنيك رائع متطور وحس روائى مدهش بحثا عن كل ماله جوهر ودلالة ، وتطرح هذه الرواية قضية القيمة العلمية أو التوجه العلمى لهذا النوع الأدبى ، وقد استخدم فيها تقنيات حديثة مثل مونولوج فوكنر ، وتركيز البصر تجاه الشىء فى حد ذاته ، وأفاد من تقنيات كبار الكتاب الذين أحدثوا انعطافات خطيرة فى الفن الروائى مثل بلزاك ، وديكنز ، وتولستوى ، وكافكا ، وبروست ، وكامى وغيرهم ، وهذه الرواية يفخر بها كاميلو خوسيه ثيلا دائما ويقول : « لقد كتبت عملا شاملا ، كان يمكن أن يجعلنى أتوقف بعده ولا أكتب شيئا غيره » .

ولكن ثيلا ظل منذ ذلك الحين يصدر الكثير من الأعمال الهامة التى لا يتسع المقام للحديث عنها فى هذا المقام .

ويحسن أن نختم هذه الدراسة بكلمة قالها ثيلا يوم الخميس ١٩ اكتوبر ، اى يوم نوبل : « أنا رجل عمرى ثلاثة وسبعون عاما ، إذا كان هذا يفيدك فى شىء ، والإنسان يمتلك حيوات

كثيرة مثل السنوات ، وانا اليوم املك الحياة رقم ٧٣ » .

د . حامد ابواحمد

القاهرة فى ١٩٨٩/١٠/٢٣

أعماله مقسمة ومرتبة حسب السنوات

السنة	الرواية
١٩٤٢	أسرة باسكوال دوارتى
١٩٤٣	خيمة الراحة
١٩٤٤	مسيرات لاثاريودى تورميس الجديدة وإحباطاته
١٩٥١	الخلية
١٩٥٣	السيد كلادويك يتحدث مع ابنه
١٩٥٥	لاكاتيرا
١٩٥٨	من الحقب التاريخية لأسبانيا ، العميان ، المجانين
١٩٦٢	زلاقة الجوعى
١٩٦٥	المواطن اسخريوط ريكلوس
١٩٦٩	سان كاميلو ١٩٣٦
١٩٧٣	مهنة الظلمات
١٩٧٦	ملف أصحاب التدييث (من ديُوس)
١٩٨٣	رقصة لميتين
١٩٨٨	كريستو أريزونا
	المقال (دراسات)
١٩٥٤	حلم وتخيلات
١٩٦١	أربع شخصيات من جيل ٩٨
١٩٦٩	فى خدمة شىء
١٩٧٣	جولة مع أسبانيا

قواميس

١٩٦٨ القاموس السرى
١٩٧٦ قاموس الشهوة

أشعار :

١٩٤٥ سحق الضوء المريب للنهار
١٩٤٨ أغانى القرية ALCARIA
١٩٥٠ الدير والكلمة

كتب رحلات :

١٩٤٨ رحلة إلى القرية ALCARIA
١٩٥٢ من مينيو إلى بيداسوا
١٩٥٢ آفيلا
١٩٥٦ يهود ، ومسلمون ، ومسيحيون
١٩٥٩ الرحلة الأندلسية الأولى
١٩٦٠ دفاتر نهر وادى رامة
١٩٦٥ مدريد
١٩٦٥ متشرد فى قشتالة
١٩٦٥ صفحات من الجغرافيا الشاردة
١٩٦٥ رحلة إلى برانس لاردة
١٩٦٧ رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية
١٩٧٥ برشلونة
١٩٨٥ رحلة جديدة إلى القرية ALCARIA

مسرح :

١٩٦٥ ماريا سابينا ، خطابة بالشعر
١٩٦٩ عربة القت ، ومخترع المقصلة

حكايات وقصص قصيرة

١٩٤٥ هذه السحب التى تمضى
١٩٤٧ جريمة الشرطي الجميلة واكتشافات اخرى
١٩٥١ الجليقي وعصابته ومذكرات اخرى
١٩٥٢ تيموتيو ، غير المفهوم
١٩٥٢ سانتا بيبيانا ، ٣٧ ، جاز فى كل دور
١٩٥٣ قهوة الفنانين وقصص أخرى
١٩٥٣ قائمة اكتشافات
١٩٥٦ طاحونة الهواء
١٩٦٠ مسلسل العماليق العاشقة
١٩٦٢ حزمة من الحكايات بدون حب
١٩٦٣ إحدى عشرة قصة كرة قدم
١٩٦٥ مشاهد أمومة جديدة
١٩٧٤ قصص تقرأ بعد دخول الحمام
١٩٧٧ رسالة من رجل أرشيدونا العبيط

مذكرات

١٩٥٩ السهلة المنال
١٩٦١ الأصدقاء القدامى

مقالات فى كتب

١٩٤٥ طاولة مضطربة
١٩٥٦ صفحاتى المفضلة
١٩٥٦ صندوق الخياط
١٩٥٦ وقت الفراغ
١٩٦٣ مقمرة اليتامى
١٩٦٣ الزمر المناسبة ومظاهر اخرى وأفعال عمياء

١٩٦٤ مصارعة فى الصالون
١٩٧٢ كرة العالم
١٩٧٣ التخت الصدىء
١٩٨٨ حمار بوريدان

حيثيات الفوز بالجائزة

قالت الأكاديمية السويدية فى حيثيات منحها جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٩ لكاميلو خوسيه ثيلا : « لقد منحت الجائزة لأبرز شخصية جددت الأدب فى أسبانيا فى فترة ما بعد الحرب ، إن مشواره الأدبى يدخل فى سياق الظروف التاريخية التى عاشها ، ويشير إلى أن مسيراته الأولى تأتى فى إطار الحرب الأهلية الأسبانية التى قسمت البلاد إلى معسكرين متخاصمين بشدة لدرجة أن الروابط غير المنفصمة للصداقة أو القرابة بين الناس كانت تشوه أو تفصم ، وقد أثرت هذه الحرب عليه تأثيرا شديدا ، وجرح خلالها جرحا خطيرا .

وتشير الأكاديمية بعد ذلك إلى روح الكاتب القلقة ، التى تمتزج فيها الرغبة الواضحة فى التجريب مع الموقف المثير .

ثم تضعه الأكاديمية فى سياق التراث الأسبانى المتصل بالمزاح الساخر ، وهو ـ كما تشير الأكاديمية ـ يمثل الوجه الآخر للإحباط .

وترى الأكاديمية أن التعاطف أو الشعور بالإشفاق إزاء المعاناة التى لا حل لها عند الجنس البشرى ، والذى يكمن فى أعمال ثيلا ، يظهر مع ذلك بشكل مسيطر عليه . وتستخدم الأكاديمية هنا لفظة « كونترول » .

وقالت الأكاديمية : « إن الخصائص التى يتميز بها الموقف الإبداعى عند ثيلا متضمنة كلها فى الكتاب الذى اشتهر به وهو رواية « عائلة باسكوال دوارتى » ، التى تقول عنها الأكاديمية : « إنها رواية خشنة ، فظيعة فى بعض المشاهد ، وبالرغم من فرض الرقابة عليها وتحريمها فقد كان لها صدى غير مسبوق ، لدرجة أنها تعتبر بعد الكيخوتة (دون كيشوت) أكثر رواية مقروءة فى الأدب الأسبانى .

باسكوال دوارتى ، نظيفا

باسكوال دوارتى ، لأنه ظل وقتا طويلا دون أن يغير ملابسه ، صار قذرا وشبه مجهول . إن عبارة نظيف جدا ، أو ما يمكن أن يقال حسن الهندام ، لم تنطبق عليه أبدا ، هذا صحيح ، لكن ليس من طبعه أيضا أن يكون شديد القذارة على النحو الذى رأيناه عليه أخيرا ، فالكتب التى تطبع طبعات كثيرة ينتهى بها الحال دائما بأن تلوث ، ومن ثم فإنه من الأنسب أن نغسل لها وجهها ، بين كل فترة وأخرى ، حتى تعود إلى بكارتها ، وهذا الأمر المتعلق بالصحة فن مخادع لكنه ضرورى ، وهو فن ينبغى أن نستخدمه بحذر حتى لا نقع فى براثنه المتوحشة مثل براثن الرذيلة ، وإن لم يكن من قبيل الحذر أن نهرب منه أو نقلل من شأنه ، ففى مدينة أورينسى كان يعيش إنسان يُدعى السيد دوموألدو ڤاكيريثا دوكى اشتهر بتقريعه للمسئول عن قيادة الماسونية فى الحضارة الأسبانية العريقة ، وبما أن الناس لم تكن تعرف جيدا ما الذى تعنيه كلمة العريقة هذه ، فقد تركوه يتكلم ، أما السيد دومو ألدو ، الذى كان شديد التظاهر ، فقد مات من بثور فى فتحة الشرج ، وهى بثور ربما كان فى الإمكان علاجها ، حسب العلم ، بقليل من الصابون ، وبالنسبة لى فإنه لا يروق لى أن تكون ذكرى باسكوال دوارتى هكذا ـ مسكين باسكوال دوارتى ، فقد مات مشنوقا ـ وأن يلقى حتفه على طريقة السيد دومو ألدو ، نتيجة خوفه من الماء .

ونحن الكتاب ، فى العادة ، نقوم بتصحيح مسودات طبعاتنا الأولى ، وحتى فى بعض الأحيان لا يحدث هذا ، والطبعات التالية نتركها أمانة فى يد الناشرين ، الذين يعهدون بها بدورهم

(ربما بسبب هوايتهم المعروفة للعبة كرة الصدة النبيلة المسلية) إلى صاحب المطبعة ، الذى يعتمد على مصحح المسودات ، وهذا الأخير ، لأنه على رأس المجموعة ، يطلب مساعدة ابن العم الفقير الذى نعرفه جميعا ، وهذا ، لأنه هو الآخر كسول ، يرسل المسودة إلى أحد جيرانه ، والنتيجة هى أن النص فى النهاية لا يتعرف عليه صاحبه نفسه : وهو فى حالتنا هذه خادمكم الأمين ، وعادة فإن الكتب تزداد تحسنا بهذا التعاون المجانى الخفى ، لكننا نحن المؤلفين لا نعترف بذلك إلا نادرا وغالبا ما نفضل ، ربما لأننا مسكونون بروح الكبر ، ذلك الذى كنا قد كتبناه مهما بلغ حظه من الجودة أو السوء .

أحيانا أفكر أن الكتابة ليست أكثر من تجميع وتبويب ، وأن الكتب تظل تكتب دائما ، أحيانا بنفسها ، حتى قبل أن نبدأ ماديا فى كتابتها ، وأيضا بعد أن نضع لها نقطتها النهائية ، ومحصول الأحاسيس يصفى فى غربال به آلاف المسام فى الرأس وعندما ينضج هذا المحصول ويبلغ مداه يتجمع حروفا على الورق ويولد الكتاب . والذى يحدث هو أن الكتاب ، بعد أن يولد ، يظل ينمو ـ باتساق أو بشكل غير منظم ـ ويتطور ، فى رأس مؤلفه ، فى الخيال أو فى إحساس القراء ، وأيضا على صفحات طبعاته الأخيرة ، وهذه الزيادات ليست على وتيرة واحدة ، هذا صحيح ، ولكنها جميعا تجعله يزيد ، فالطفل ينمو بطريقة مختلفة عن طريقة السرطان ، ولكن السرطان ـ وهذا هو السىء ـ ينمو أيضا .

وبالنسبة لكتاب باسكوال دوارتى فقد اضطررت تقريبا ـ فى هذه المناسبة ـ أن ألجأ إلى الجراحة لكى أقتطع منه ما يفيض عن حاجته ولكى أعيد له بعض ما أخذ منه ، ولحسن الحظ ، فى النهاية ، كانت غسلة جيدة بالصابون كافية تماما . بالرغم من أنى الآن ، عندما أعيد قراءته بعد مرور سنوات ، تتزاحم فى داخلى

الإغراءات حتى أقوم بزخرفته بكثير من الدقة والعناية ، إلا أني فضلت أن أترك الأشياء - في الأساس - كما كانت عليه وألا أحركها قيد أنملة ، لا تحركه ، فهو يافع ويمكن أن يفقد رواءه - هكذا سمعت صوتا قادما من حقول سلمنقة ، يعلو قليلا على المشهد الأكستريمى (نسبة إلى منطقة اكستريمادورا) لباسكوال دوارتي . وفضلا عن ذلك فإن رأسى ليست مثلما كانت منذ عشرين عاما ، وهذا الكتاب نتاج لرأسى تلك لا لرأسي الحالية ، ومن ثم ينبغى أن نحترم التقويم .

كان مونتي MONTAIGNE (الكاتب الفرنسي) يسمي النظام فضيلة حزينة ومظلمة . ولعل مونتي قد خلط النظام بقناعه الخاص ، وبمظهريته المجردة ، وهو موقف شائع بين الناس المعروفين بالنظام ، أى بين هؤلاء الذين يطلقون النظام على كل ما ليس إيقاعا وإنما هو سكون . ونظرا لأنهم لا يميزون بين العجز (بضم الجيم) وبين أوائل فصول السنة الأربعة فإنهم يقطعون الفجل من أوراقه (أى يسبقون الفهم) وأنا أعتقد أن النظام شيء مبهج وحي ومضيء ، أما الشيء الحزين والميت والمعتم فهو الذى يأتى عادة ، احتيالا وتفخيما ، بواسطة النظام ، بينما هو في الواقع لايعدو أن يكون فراغا . فالفلك أية عجيبة وجميلة من أيات النظام ، أما النظام العام ، فعلى العكس من ذلك ، لا يعدو أن يكون ، في غالب الأحيان ، مجرد فوضى صامتة يراد لها أن تبدو وكأنها لون رائق من ألوان النظام ، بالرغم من أنه لا أحد يعتقد في ذلك على الإطلاق

ولكن إذا كنت أعتقد أحيانا أن الكتابة والتنظيم شيء واحد ، فإني في أحيان أخرى أشك في عكس ذلك ، بل يبلغ بى الأمر أن أؤمن بالإلهام الذى يحدثنا عنه الشعراء الرومانتيكيون - هؤلاء المزيفون الكبار - والنقاد الرومانتيكيون - فرسان الإبهام البواسل - وأنا أفهم أنه من المطلوب - ولا أدرى أمن الحكمة أيضا - ألا أفكر دائما في الجانب المتعلق بالصفة ، وإنما على

العكس من ذلك ، أغير قليلا فى جانب الإسم أو الشيء الجوهرى ، وأقول ذلك اعتمادا على أنى لا أصاب بالدهشة إذا استطعت الوصول إلى إدخال الإلهام فى نطاق النظام .

وفيما يتعلق بروايتى « عائلة باسكوال دوارتى » ، وبعد الكثير الذى اشتغلته فيها ، سوف أحاول ألا ألمسها بعد ، فنصها الأصلى يبقى كما هو (وربما يكون أقل حزلقة أن أقول : ثابتا) في هذه الطبعة ، وسأحاول أن أستشهد بها دائما كلما احتجت إلى ذلك ، أما ترجماتها فينبغى أن أقبلها كما هى ، اللهم إلا إذا فضل المترجمون في المستقبل ، أن يلتزموا بهذا النص الحالى ، فإنى أشكرهم على ذلك ، وعلى أية حال فإنى لم أعترض أبدا على أية ترجمات ، لأنى لكى أراجعها أو أعلق عليها محتاج إلى مجموعة من المعارف بينى وبينها بون بعيد ، ففى أيام إقامتى فى مدينة لاكورونيا تعرفت على حارس بلدية وأعجبت به . كان يسمى كاستيلو ، وكان يحمل على كُمّ ذراعه سبعة أعلام صغيرة كل علم منها ينسب إلى بلد يتحدث لغته . وأنا لست كذلك ، ولا يسوءنى أن أعترف أنى لم أصلح للخدمة فى الحرس المدنى ، أو على الأقل الحرس المدنى اللاكورونى ، فربما فى مدن أخرى مثل جيان أو كاثيرس لا يشترطون كل هذه الطلبات والمعارف .

وأخيرا : ها هو باسكوال دوارتى نظيفا ، وهذا هو الأهم . الآن يستعد كى يبدأ ليموت من جديد ، شيئا فشيئا .

بالمادى مايوركا ، فى ٢٣ أغسطس ١٩٦٠

إهداء ثيلا

أهدى هذه الطبعة إلى أعدائى الذين
ساعدونى كثيرا فى مسيرتى .

مذكرة للناسخ

يبدو لى أنه قد جاءت الفرصة لتقديم مذكرات باسكوال دوارتى للمطبعة ، ولو أننى قدمتها من قبل فربما كان فى ذلك بعض الاندفاع ، فلم أشأ أن أتسرع فى إعدادها ، لأن كل الأشياء تظهر فى أوانها ، بما فى ذلك تصحيح الأخطاء الكتابية لمخطوط ما ، ولأنه ليس من المستحسن ختام عمل تم تصميمه ، كما يقال ، على حذاء الفرس ، ولو أنى أعطيتها بعد ذلك لما وجدت عندى أى مبرر أستند عليه ، فالأشياء ينبغى أن تظهر بمجرد أن ننتهى منها .

وهذه الصفحات التى أقوم بنسخها تباعا ، بقلمى وفى منتصف عام ٣٩ ، عثرت عليها فى إحدى صيدليات ألمندراليخو ـ والله يعلم من هى الأيادى الجاهلة التى أودعتها هنا ـ وقد أمسكت نفسى منذ ذلك الحين هناك ، وأخذت أترجمها وأرتبها ، ذلك لأن المخطوط كانت قراءته صعبة للغاية ، من جهة بسبب رداءة خطه ومن جهة أخرى لأنى وجدت الصفحات بدون ترقيم وغير منظمة تماما .

وأود أن يكون واضحا جيدا منذ اللحظة الأولى أنه لا ينسب إلى فى العمل الذى أقدمه اليوم للقارىء الشغوف إلا عملية النسخ ، فلم أصحح ولم أضف نبرة واحدة ، لأنى أردت أن أحترم الحكاية حتى فى أسلوبها ، وقد فضلت فى بعض المشاهد الشديدة الجفاف فى العمل أن أستخدم المقص وأقطع الزائد ، وهذه الطريقة كما هو واضح ، تجنب القارىء معرفة بعض التفاصيل الصغيرة ـ التى لا يخسر شيئا من جهله بها ـ لكنها ،

على العكس من ذلك ، تعطى ميزة أن نتجنب وقوع النظر على أسرار مثيرة للاشمئزاز ، ومن ثم ـ وأكرر ـ بدا لى مناسبا أن أستخدم التهذيب بدلا من الصقل .

أما الشخصية ، على طريقتى فى الرؤية ، وربما من أجل هذا أخرجتها للنور ، فهى نموذج فى السلوك ، نموذج لا يصلح للتقليد ، وإنما لكى نهرب منه ، نموذج يفيض إزاءه أى موقف من مواقف الشك ، نموذج لا يمكن إلا أن نقول أمامه :

ـ هل ترى ما يفعله ؟ إذن فافعل عكس ما ينبغي .

ولكن فلنترك باسكوال دوارتى يتحدث ، فلديه أشياء هامة يحكيها لنا .

رسالة تعلن عن إرسال المخطوط الأصلى

السيد الأستاذ / خواكين باريرا لوبيث
مدينة ماردذ
تحية طيبة وبعد

أرجو أن تستميح لى العذر فى أن أرسل لك هذه الحكاية الطويلة فى طى هذه الرسالة ، التى هى أيضا طويلة فى بابها ، ولكن بما أنك الوحيد من أصدقاء السيد خيسوس جونثاليث دى لا ريفا (سامحه الله على نحو ما طلب هو الآخر السماح لى) الذى مازلت أحفظ عنوانه ، لهذا فإننى أريد أن أرسلها لك حتى أتخلص من رفقتها ، ذلك لأننى أحترق عندما أفكر فقط كيف استطعت أن أكتبها ، ولأننى أخشى أن أرمى بها فى لحظة كآبة ، من تلك اللحظات التى تنتابنى كثيرا فى هذه الأيام ، ولو أننى فعلت ذلك فسوف أحول دون أن يتعلم البعض ما لم أدركه إلا ولات ساع مناص .

وسوف أوضح قليلا ما أريد قوله ، بما أنه لسوء الحظ لا يخفى علىّ أن ذكراى سوف تكون مرتبطة باللعنة أكثر من أى شىء آخر ، ولأنى أريد أن أرضى ضميرى ، قدر المستطاع ، بهذا الاعتراف العام ، الذى هو بمثابة تكفير غير قليل عن الذنب ، لهذا فقد عنَّ لى أن أروى شيئا مما أذكره عن حياتى ، ولم تكن الذاكرة فى أى وقت من نقاط قوتى ، ولذلك فإنى أدرك أنه من المحتمل جدا أن أنسى أشياء كثيرة فى غاية الأهمية أيضا ، ولكن بالرغم من هذا فقد قررت أن أروى ذلك الجزء الذى لا أريد له أن يمسح من رأسى ، والذى لم تبد اليد أى مقاومة عند خطه على الورق ؛

وذلك لأن هناك جزءا آخر عندما حاولت أن أرويه أحسست ببوائك هائلة تسد الروح ، ومن ثم فضلت أن ألوذ بالصمت ، والآن فإني قد نسيته ، وعندما بدأت في كتابة هذا النوع من المذكرات أدركت أن شيئا في حياتي ـ وهو موتي الذي أراد الله أن أهرع إليه ـ يمكن أن أرويه على نحو ما ، وكانت هناك أشياء كثيرة تدعوني إلى أن أتروى في هذا الموضوع ، فضلا عن أنه لم يبق لي من الحياة إلا أيام قلائل ، وأستطيع أن أقسم لك بأني أحسست في أكثر من مرة بخور في قواي عندما لم يسعفني الذهن أين ينبغي أن أضع النهاية ، وقد رأيت أن الأفضل هو أن أبدأ وأن أترك النهاية للحظة التي أسقط فيها من يد الله ، وهذا ما فعلته ، واليوم ، وقد بدا لي أني أصبت بالسأم من كل هذه الصفحات التي تربو على المائة والتي ملأتها بكلامي الفارغ ، فإني أتوقف بشكل نهائي عن مواصلة الكتابة لكي أترك لخيالك إعادة تركيب ما بقي حتى الآن من حياتي ، وهو تركيب لا أظن أنه سوف يستعصي عليك ، لأنها بالتأكيد لن تكون إلا أياما قليلة ، ثم إني وأنا بين هذه الجدران الأربعة ، لا أعتقد أن أشياء جديدة يمكن أن تحدث لي .

وقد ضايقتني ، عندما بدأت أحرر لك هذه الرسالة ، فكرة أن أحدا كان يعرف في ذلك الوقت هل يمكن أن أصل إلى نهاية حكايتي ، أو متى ينبغي أن أتوقف إذا كان الوقت الذي انقضى لم تحسب أبعاده جيدا وهذا التأكد من أن أعمالي لابد من أن تمضي ، بالقوة ، فوق أخاديد محددة سلفا ، كل هذا كان ينتشلني من الهوة ، والآن بعد أن أصبحت قريبا من الحياة الآخرة ، جنحت أكثر إلى الاستسلام للقدر . وأسأل الله أن يمنحني عفوه .

إني أحس ببعض الراحة بعد أن رويت كل ماحدث لي ، وهناك لحظات كنت أشعر بأن ضميري لا يؤنبني بشأنها إلا قليلا .

وأنا واثق من أنك سوف تتفهم ما فضلت عدم قوله ، لأنه من الأفضل ألا تعرفه ، وإني الآن نادم لأني أخطأت طريقي ، ولكني لم أعد أطلب العفو في هذه الحياة ، ولم ؟ فربما يكون من الأفضل أن تتصرفوا معي وفق ماهو قائم ، لأنه من المحتمل جدا أنه في حالة نكصكم عن ذلك أعود إلى مسيرتي من جديد ، لا أريد أن أطلب العفو ، لأن ما علمته لي الحياة من سوء يتجاوز الحد ، وأنا ضعيف جدا لا أقاوم الإغراء . واقرأ ماهو مكتوب في الكتب السماوية .

وتقبل ياسيد خواكين ، مع هذه اللفة من الورق المكتوب ، عذري لأني توجهت إليك ، واقبل هذا الرجاء بطلب العفو وكأنك السيد المسيح ، من خادمك المتواضع .

باسكوال دوارتي

سجن بطليوس ، في ١٥ فبراير عام ١٩٣٧

فقرة من الوصية المكتوبة بخط اليد المقدمة من السيد خواكين باريرا لوبيث ، الذي قضى نحبه بدون ذرية وأوصى بتركته لراهبات الخدمة المنزلية .

البند الرابع : قد أمرت بخصوص لفة الورق الموجودة في درج مكتبي ، المربوطة بخيط دوبارة ، وعليها عنوان بالقلم الأحمر يقول : باسكوال دوارتي ، أمرت أن يرمى بها في النار دون أن تقرأ ، وبدون أي تباطؤ ، لأنها متحللة ومنافية للعادات الطيبة ، ومع ذلك ، فإنه إذا تدخلت العناية الإلهية بدون أية وساطة من أحد فإن اللفة المذكورة تتخلص خلال ثمانية عشر شهرا من العقوبة التي أريدها لها ، وإني آمر من يعثر عليها أن يخلصها من التلف ، وأن يأخذها وكأنها من ملكه الخاص ، ويتصرف فيها كما يريد إذا لم تكن إرادته تختلف مع إرادتي .

حُرر في ماردة (بطليوس) عند الاحتضار .

يوم ١١ مايو عام ١٩٣٧ .

إهداء

إلى ذكرى النبيل الشهير السيد خيسوس جونثاليث دى لاريڤا ، كونت تورى ميخيا ، الذى عندما قضى مؤلف هذا المكتوب أطلق عليه اسم باسكوال الصغير وأخذ يبتسم .

ب . د

●●●

- ١ -

أنا ياسيدى ، لست سيئا ، بالرغم من أنه لا تنقصنى الأسباب لكى أكون كذلك ، فكلنا نحن البشر الفانين نأتى من أرومة واحدة عندما نولد ، ومع ذلك عندما نبدأ فى النمو يحلو للقدر أن يفرق بيننا وكأننا من الشمع ويوجه مصائرنا فى طرق متشعبة تؤدى إلى نهاية واحدة وهى الموت ، ثمة أناس يطلب منهم أن يمشوا فى طريق الأزهار ، وأناس يؤمرون بالمضى فى طريق الحرشف والصبار ، فهؤلاء يتمتعون بالنظرة الهادئة ، وهم فى أريج سعادتهم يبتسمون ابتسامة البرىء ، وأولئك يغالبون شمس البطحاء الحارقة ويقطبون الجبين مثل الوحوش دفاعا عن النفس ، فهناك فرق كبير بين تزيين الجسد بأحمر الخدود والروائح العطرية وبين عمل هذا بالوشم الذى لا يمكن إزالته بعد ذلك .

ولدت منذ سنوات طويلة - على الأقل خمسة وخمسين عاما - فى قرية ضائعة بإقليم بطليوس ، وكانت القرية على بعد حوالى فرسخين من المندراليخو ، وتقع على طريق أملس طويل كأنه يوم بلا خبز ، أملس وطويل مثل أيام شخص محكوم عليه بالإعدام ، وهاتان الصفتان لا يمكن لك فى مثل حالتك أن تتخيلهما .

كانت قرية ساخنة تسطع شمسها ، غنية إلى حد ما بالزيتون والخنازير (معذرة) ، ومنازلها مطلاة بلون شديد البياض ، لدرجة أن نظرى مازال يؤلمنى عندما أتذكرها ، وبها ميدان كله من الحجارة ، به نافورة جميلة من ثلاث عيون فى وسطه ، ومنذ عدة سنوات عندما خرجت من القرية لم تكن المياه تتدفق من العيون ،

ومع ذلك كم كانت النافورة رائعة ! كم كانت رشيقة ! ، كانت تبدو لنا جميعا بطرفها الذى يشبه طفلا عاريا ، وحوضها المتموج الحواف وكأنها أصداف سمك ، وفى الميدان كان يقع مبنى البلدية ، وكان كبيرا ومربعا مثل صندوق التبغ ، وفى منتصفه برج ، وفى البرج ساعة ، بيضاء مثل ذبيحة ، متوقفة دائما عند التاسعة ، وكأن القرية غير محتاجة إلى خدماتها ، وإنما محتاجة لها كزينة ، وفى القرية ، كما هو الطبيعى ، كانت توجد بيوت جميلة وأخرى سيئة ، والأخيرة ، مثلما يحدث فى كل شىء ، هى الأكثر انتشارا ، وكان هناك بيت من دورين ، هو بيت السيد خيسوس ، الذى كان يمتع النظر ببهوه الملىء بالقيشانى والأصص ، فقد كان السيد خيسوس دائما من محبِّذى النباتات ، وأنا أعتقد أنه أمر مولاته بحراسة الغرانيون ودوار الشمس والنخيل والأعشاب ، وكأنها أقوم على رعاية أطفال ، لأن العجوز كانت تتجول دائما وفى يدها إناء فتروى الأصص بكثير من الحنو لابد من أن سيقان النباتات كانت تشكرها عليه ، ذلك أن هذه النباتات كانت تمثل عندها قمة النضارة والأخضرار ، وكان منزل السيد خيسوس يقع أيضا فى الميدان ، ومن الأشياء الغريبة بالنسبة لرأس مال صاحب البيت الذى لم يكن يكف عن الصرف أنه كان يختلف عن البيوت الأخرى ، فضلا عما ذكرته من أشياء جميلة فيما سبق ، فى شىء كل البيوت الأخرى تكسبه فيه ، وهو الواجهة ، التى كانت تبدو بلون الحجارة الطبيعى ، وكانت عادية جدا ، ولم تكن مطلية بالجير مثل البيوت الفقيرة جدا ، ولابد من أنه كان هناك أسباب لذلك ، وكانت على البوابة بعض أحجار شعارية ، ذات قيمة كبيرة ، كما يقولون ، تنتهى برءوس محاربين من الماضى ، بها أكياس ورياش ، يرنو بعضها الى منطقة جنوب شرق والأخرى تجاه الغرب ، وكأنما تتمثل وضعا لمراقبة مايمكن أن يأتيها من هذه الجهة أو تلك ، وخلف الميدان ، من جانب بيت السيد خيسوس كانت تقوم الكنيسة ببرجها الحجرى وجرسها الذى كان يدق بطريقة لا أقدر على وصفها ،

ولكنه يرد إلى الذاكرة ، وكأنه مازال يدق فى هذه الأركان ، وكان برج الأجراس على نفس ارتفاع برج الساعة ، وفى الصيف عندما تأتى أسراب البجع ، كانت تعرف على أى برج منهما وقفت الصيف الماضى ، والبجعة العرجاء ، التى تحملت حتى الآن فصلى شتاء كانت من عش الكنيسة ، ويبدو أنها سقطت مرة وهى مازالت غضة خوفا من طائر جارح .

وكان بيتى يقع خارج القرية ، على بعد حوالى مائتى خطوة طويلة من بيوت منطقة الأناناس ، كان بيتا ضيقا من طابق واحد ، يتفق مع وضعى ، ولكن حدثت ألفة بينى وبينه ، بل إنى فى بعض الأوقات كنت أحس بالفخر من جراء وجودى فيه . والواقع أن الشىء الوحيد الذى كان يمكن أن يُرى فى البيت هو المطبخ ، وهو أول ما يقابل الداخل ، كان نظيفا دائما ومدعوكاً بعناية ، صحيح أن الأرضية كانت ترابية لكنها كانت واطئة تحدث رسومات بحصواتها الصغيرة ، ولا تكاد تقل عن أرضيات أخرى كثيرة وضع لها صاحبها بلاطا حتى يشعر أنه أكثر حداثة ، كان المكان نظيفا ومشرقا ، وحول الجرس كنا نضع رفا عليه خزف للزينة ، وجرار تذكارية مرسومة باللون الأزرق ، وأوانى بها رسوم زرقاء أو برتقالية ، وبعض الأوانى عليها رسوم ، وبعضها الأخر يحمل وردة أو اسما أو سمكة ، وعلى الجدران كانت لدينا عدة أشياء ، من بينها تقويم جميل جدا عليه صورة فتاة تجلب لنفسها الهواء بمروحة فوق زورق ، وتحتها نقرأ حروفا تبدو مثل تراب من الفضة تقول « موديستو رودريجيث وارد من وراء البحار . ماردة (بطليوس) » ، وصورة لعامل نسيج ببدلته الملونة التى تشع ضوءا ، وثلاث أو أربع صور فوتوغرافية ـ منها الكبير والمتوسط ـ لا أدرى لمن لأنى رأيتها دائما فى نفس المكان ، ولم يعن لى أبدا أن أسأل عن ذلك ، وكان لدينا أيضا ساعة/ منبه مثبتة على الحائط ، لا تساوى شيئا ، وإن كانت تعمل دائما بصورة منتظمة ، وعلبة دبابيس

ملونة ، مثبت بها عدد من الدبابيس الجميلة ذات الرءوس التى تشبه الزجاج الملون ، أما أثاث المطبخ فقد كان قليلا وبسيطا : ثلاثة كراس ، أحدها دقيق جدا ، له مسند وأرجل من الخشب المقوس ، وظهره من الخشب المشبك ، وطاولة من الصنوبر ، بها درج يناسبها ، وكانت تبدو أقصر قليلا من المقاعد لكن لابد منها . أما جو المطبخ فكان جيدا : إذ كان مريحا ، وفى الصيف ، بما أننا لم نكن نشعل فيه النار فقد كان الإنسان يحس بالانتعاش وهو يجلس على أرضية المكان ، حيث كنا ساعة الغروب نفتح الأبواب اثنين اثنين ، أما فى الشتاء فكان دافئا بفعل جذوات النار المشتعلة التى كنا عندما نعتنى بها قليلا تظل متقدة طوال الليل . وكم كان ممتعا أن نرى ظلالنا على الحائط عندما يشتعل اللهيب ! كانت الظلال تذهب وتجىء ، أحيانا ببطىء ، وفى أحيان أخرى على قفزات كأننا نلعب ، وأنا أذكر أنى وأنا صغير كنت أشعر بالخوف ، وحتى بعد أن كبرت أصاب بقشعريرة عندما أتذكر لحظات الخوف هذه .

أما باقى المنزل فإنه لا يستحق عناء وصفه ، وهذا هو جانبه المبتذل ، فقد كان لدينا حجرتان آخريان ، إذا صح لنا أن نسميهما حجرتين لأنهما كانتا مسكونتين ، لا لأى شىء آخر ، والأسطبل ، وأنا فى كثير من الأحيان الآن أفكر ولا أدرى لماذا كنا نسميه هكذا ، حيث كان [illegible] ومهملا ، كما هو عليه ، وكنا ننام فى إحدى الحجرتين أنا [illegible] وأختى ، وفى الأخرى ينام أبواى إلى أن توفاهما الله ، وبعد ذلك ظلت الحجرة خالية دائما ، فى البداية لأنه لم يكن هناك من يشغلها ، وبعد ذلك عندما وجد هذا الفرد فإنه قد فضل المطبخ دائما ، لأن المطبخ بالإضافة إلى كثرة أضوائه لم يكن هواؤه شديداً . أما أختى فقد كانت تنام فيها دائما عندما تحضر ، والأطفال عندما أعقبت كانوا أيضا يدلفون إلى هناك كلما انطلقوا من إسار الأم ، والحق أن الحجرات لم تكن نظيفة جدا ولا مشيدة جيدا ، ولكن الحق أيضا أنها لم تكن

تستوجب الشكوى ، كان يمكن أن نعيش ، وهذا هو الأساس . بضمان سحب عيد الميلاد ، وفى مأمن من اختناقات أعياد العذراء فى أغسطس .. وكان الاسطبل هو أسوأ شىء ، كئيبا ومعتما ، أما جدرانه فكانت مضمخة برائحة حيوان ميت انتزع من حفرته عندما بدأت الحيوانات فى شهر مايو تقريبا تربى الجيف التى سوف تصبح طعاما للغربان .

شىء غريب ، ولكن إذا كنت قد تخلصت من تلك الرائحة وأنا فتى ، فإن الكروب التى كانت تغشانى بدت مثل الموت ، ومازلت أذكر تلك الرحلة التى قمت بها ألى العاصمة متخذا طريق المزارع ، فقد ظللت أمشى طوال اليوم فى حالة من الكرب أضرب فى الهواء وكأنى كلب صيد . وعندما ذهبت لأنام فى الخان (فندق صغير - المترجم) فاحت رائحة بنطلونى الخشن .. كان الدم يغلى فى عروقى . نحيت المخدة جانبا ، وأسندت رأسى على بنطلونى مطويا لكى أنام . ونمت فى تلك الليلة مثل صخرة .

وفى الاسطبل كان لدينا دابة هزيلة مصفاة من اللحم تساعدنا فى الشغل ، وعندما كنا نحس بأن أوضاعنا قد تحسنت ، وهو شىء فى الحقيقة لم يكن يحدث إلا لماما ، كنا نمتلك أيضا زوجا من الجنزير (معذرة) أو ثلاثة ، وفى الجزء الخلفى من البيت كان لدينا حوش أو قل نتوءا ، ليس كبيرا ، لكنه كان يؤدى لنا خدمات ، وبه جب اضطررت بمرور الزمن أن أردمه لأن مياهه كانت آسنة .

وخلف الحوش كانت هناك قناة ، أحيانا نراها نصف جافة لكنها لم تكن تمتلىء أبدا ، قذرة ، كريهة الرائحة مثل جماعة من الغجر ، وكان يمكن أن تستخرج منها بعض الاسماك الجميلة ، ولهذا فإنى فى بعض الامسيات كنت لكى أقتل وقتى أتسلى بذلك ، أما زوجتى التى كانت وسط كل هذا ذات دعابة ، فكانت تقول إن الاسماك سمينة لأنها تأكل من نفس ما يأكل منه السيد

خيسوس ، مع فارق وحيد هو أن دورها يأتي في اليوم التالي .
وعندما كنت أذهب للصيد كانت الساعات تمضي دون أن أحس بها ، وعندما يحين موعد لمّ الأدوات يكون المساء . في الغالب ، قد بسط رداءه على المكان وهناك ، من بعيد ، كانت مدينة ألمندراليخو مثل عظاءة واطئة سمينة ، أو مثل حبة ملفوفة تخشى أن تنفصل عن الأرض ، قد بدأت تضيء أنوارها الكهربائية . ومن المؤكد أن سكانها كانوا يجهلون أني كنت أصطاد ، وأني كنت في تلك اللحظة نفسها أتأمل كيف كانوا يضيئون أنوار بيوتهم متخيلا أيضا أن كثيرين منهم كانوا يقولون أشياء تخطر على بالي أو يتحدثون في أمور لاتغيب عن ذهني ، ها إن سكان المدن يعيشون وقد أداروا ظهورهم للحقيقة ، وفي غالب الأحيان لاينتبهون إلى أن هناك على بعد فرسخين ، في وسط السهل ، رجلا من الريف يتسلى بالتفكير فيهم وهو يطوي سنارة الصيد ، بينما يتناول من على الأرض ، سلة الصفصاف وبها ست سمكات أو سبع !

ومع ذلك فإن صيد الاسماك كان يبدو لي دائما مضيعة للوقت لاتليق بالرجال ، ومن ثم فإني في معظم الأحيان كنت أخصص أوقات فراغي للصيد البري ، وفي القرية اشتهرت بين الناس بأن لدي بعض المهارة في ذلك ، ومع التواضع ينبغي على أن اقول بصراحة إن الذي أطلق عليّ هذه الشهرة لم يجانبه الصواب كان لدي كلبة صيد صغيرة اسمها « شيبا » CHiSPA فيها بعض الدناءة ، وفيها بعض الخشونة ، لكني كنت أتفاهم معها جيدا ، وكنت أصحبها في كثير من الأيام صباحا الى منطقة « شاركا » على بعد فرسخ ونصف من القرية تجاه خط البرتغال ، ولم يحدث أن عدنا ذات مرة خالي الوفاض الى البيت وعند العودة كانت

الكلبة تسبقني وتنتظرني دائما عند التقاطع كانت هناك صخرة مدورة ومسواة وكأنها مقعد واطىء ومازلت أحتفظ لها بذكرى طيبة أكثر من أي شخص ، وأفضل ، بالتأكيد مما أحتفظ به لكثير منهم .. كانت عريضة وغائرة بعض الشيء وعندما كنت أجلس عليها كان عجزي ينزلق قليلا (معذرة) وأحس براحة شديدة لدرجة أنى كنت أشعر بالأسى ، وأنا أضطر لتركها ، كنت أمضى لحظات طويلة جالسا على الصخرة عند التقاطع ، أصفر ، والبندقية بين ساقى ، أرنو إلى مايمكن أن أرنو إليه ، وأدخن سيجارة ، وكانت الكلبة تجلس قبالتى ، على رجليها الخلفيتين ، وتنظر إلى ورأسها مائلة ، وأذناها البنيتان فى حالة تيقظ شديدة ، كنت أحدثها ، وهى ، وكأنها تريد أن تفهمنى أفضل ، ترفع أذنيها قليلا ، وعندما أصمت كانت تنتهز الفرصة لتجرى خلف الجراد ، او ببساطة لكى تغير وضعها . وعندما كنت أمشى ، ودائما دون أن أدرى لماذا ، كان لابد أن أدير رأسى تجاه الصخرة ، وكأنى أستودعها ، وحدث ذات يوم أن بدت لى شديدة الحزن لمغادرتى إياها ، لدرجة أنى لم ألبث أن عدت أدراجى أجلس عليها من جديد . وعادت الكلبة تقعى قبالتى ، وتنظر إلى مرة أخرى ، والآن ، أدرك أن نظرتها كانت مثل نظرة المعترفين ، فاحصة وباردة ، تشبه ، كما يقال ، نظرة الوشق (حيوان يشبه القط - المترجم) وسرت فى جسدى قشعريرة . كانت تبدو مثل تيار يحاول أن يخرج من بين ذراعى ، وانطفأت منى السيجارة .. والبندقية ذات الماسورة الواحدة ، توقفت عن المداعبة ، ببطء ، بين ساقى . وظلت الكلبة تنظر إلى ثابتة ، وكأنها لم ترنى أبدا من قبل ، وكأنها تريد أن تتهمنى بشىء بين لحظة وأخرى ، وكانت نظرتها تجعل دمى يغلى فى عروقى لدرجة أن جاءت لحظة بدا فيها وكأنى لابد وأن أسلم نفسى ، كان الجو حارا ، حرارة

مرعبة . ووجدت عينى تغمضان بتأثير نظرة الحيوان التى تشبه المسمار .

تناولت البندقية وأطلقت رصاصة ، عدت أملأها وعدت أطلق .
كان دم الكلبة غامقا ولزجا ، وأخذ ينتشر قليلا قليلا على الأرض

ـ ٢ ـ

لا أحتفظ من طفولتي بذكريات طيبة . كان أبي يسمى استيبان دوارتي دينيز ، برتغاليا . ناهز الأربعين وأنا طفل . طويل وبدين مثل جبل . كان لونه يميل للحمرة ، وله شارب كبير أسود يمتد إلى أسفل . وطبقا لما يحكون . فأنه في فترة الشباب كان يمضى صاعدا لأعلى ، ولكنه منذ أن دخل السجن ، ذهب بهاؤه وأنهكت قوة شاربه . حتى اضطر في النهاية أن يدفنه ، كنت أشعر تجاهه بكثير من الأحترام وغير قليل من الخوف ، وكنت دائما كلما استطعت أستدعى طيفه . وأحاول ألا أصطدم به كان فظا غليظا لايسمح بأن يعارضه أحد في شيء وهي عادة كنت أحترمها لانها كانت تشدني . وعندما كان يتملكه الغضب ، وهو شيء كان يحدث له بأكثر مما يحتاج . كان يضرب أمي ويضربني « علقات » ساخنة مهما كان السبب تافها ، وهي « علق » كانت أمي تحاول أن تردها له حتى تنتصر لنفسها قليلا ، ولكنى إزاء ذلك لم أكن أملك إلا الاستسلام لأني كنت صغيرا . ها إن الاجسام شديدة الرخاوة في هذه السن الغضّة !

ولم أجرؤ أبدا لامعه ولامع أمي أن أسأل متى سجن ، لأني فكرت أن الحذر يستوجب ألا أضع الكلاب في ساحة الرقص ، فهي بنفسها ترقص أكثر مما ينبغي ، ذلك أني في الحقيقة لم أكن أحتاج أن أسأل عن شيء ، لأنه لم يحدث أبدا أن انعدمت الأرواح المحسنة ، وخاصة في القرى قليلة السكان ، ومن ثم فقد تطوع بعض الناس لكي يقصوا على كل شيء ، لقد قبضوا عليه بتهمة التهريب ويبدو أن هذه كانت مهنته طوال سنوات كثيرة ،

ولكن بما أن الابريق الذى يحمل إلى النبع كثيرا ينتهى به الأمر بأن يكسر ، وبما أنه لاتوجد مهنة بدون متاعب ، ولا طريق بدون عمل ، فقد حدث ذات يوم ، ولعله أقل يوم توقع فيه ذلك والثقة توقع الشجعان مواقع التهلكة ـ أن تبعه رجال البوليس ، وعثروا معه على البضاعة المهربة ، واقتادوه للحجز ، ولابد أن هذه الواقعة قد مر عليها وقت طويل ، لأنى لا أتذكر شيئا ، وربما لم أكن ولدت .

أما أمى ، فعلى العكس من أبى ، لم تكن بدينة ، بالرغم من قامتها الفارعة ، كانت طويلة وممصوصة ، ولم يكن مظهرها ينم عن صحة طيبة ، وإنما على العكس ، كانت سحنتها صفراء ضاربة إلى الخضرة ، وخداها غائرين ، ومظهرها كله يدل على أنها إما مسلولة وإما ليست بعيدة عن ذلك ، كانت أيضا جافة وعنيفة ، ولها مزاج يمضى فى طريق كل الشياطين ولغة تنطلق من فمها لايحاسبها عليها إلا الله ، لأنها كانت تسب أسوأ الاشياء فى كل لحظة ولأتفه الاسباب .

كانت ترتدى ملابس الحداد دائما ، وكانت صداقتها للمياه قليلة ، قليلة جدا لدرجة أنى لو ذكرت الحقيقة فسوف أقول إنها على امتداد حياتها ، حسبما أعلم ، لم أرها تغتسل إلا فى مرة واحدة قال لها فيها أبى ياسكرانة ، وأرادت أن تظهر له أنها لاتخاف من المياه . وعلى العكس من ذلك فإن النبيذ لم يكن يسيئها كثيرا ، فكلما وقع فى يدها بعض النقود ، أو فتشت فى صديرى الزوج ، كانت ترسلنى إلى الحانة بزجاجة تخفيها تحت السرير حتى لايعثر عليها والدى . كان لها شارب صغير أبيض على جانبى الشفتين ، وخصلات شعر جعدة خشنة تضمها فى ضفيرة ، متوسطة الحجم ، فوق الرأس ، وحول الفم كان يلاحظ وجود جروح أو شارات صغيرة وردية متناثرة ، وطبقا لما أعتقد فإن هذه الجروح تخلفت عن بعض البثور الخبيثة التى ظهرت

عندها وهي شابة ، وفي بعض الأحيان ، في الصيف ، كانت تدب الحياة في هذه الجروح ، ويزهو لونها وينتهي بها الحال إلى أن تكون دمامل متقيحة ، يعمل الخريف على قتلها ، بينما الشتاء يمسحها تماما .

كانت العلاقة بين أبوى سيئة ، فبالاضافة إلى قلة حظهما من التعليم كان حظهما من الفضائل قليلا أيضا ، كما كانا غير راضيين بما قسم الله به لهما ـ وهي كلها نقائص ورثتها لسوء حظي رغم أنفي ـ وهذا جعلهما لايعبأن بالتفكير في المبادىء أو وضع حد للغرائز الدنيا ، مما أفسح المجال لأن يكون أى سبب ، مهما صغر شأنه ، كافيا لاثارة العاصفة التي كانت تمتد بعد ذلك أياما وأياما دون أن يرى لها نهاية ، وأنا بشكل عام ، لم أكن أنحاز لأى منهما ، لأنى لو قلت الحقيقة كان بالنسبة لى سيان أن يكسب هذا أو تلك ، فأحيانا كنت ، أسعد بأن يضرب أبى ، وأحيانا أخرى بأن تضرب أمى . ولكنى لم أجعل من هذا أبدا مسألة هامة .

وأمي لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة ، أما أبى فنعم ، وكان فخورا بذلك إلى أقصى حد ، حتى لقد كان هذا يظهر على وجهه ، باستمرار ، وعادة ما كان يقول لها ، بشكل تلقائى ، ياجاهلة ، وهي مسبة خطيرة عند أمي التي كانت تصير مثل الأفعوان ، وفي بعض الامسيات كان أبى يأتي إلى البيت بورق في يده ، ويجلسنا رغما عنا في المطبخ ويقرأ علينا الأخبار ، وتأتي التعليقات بعد ذلك ، وفي تلك اللحظة كنت أحس بالرعشة لأن هذه التعليقات كانت دائما بداية لمشاجرة .

وكانت أمي ، لكى تهينه ، تقول له إن الورق ليس فيه شىء مما يقرأه وأن كل مايقوله يستخرجه من رأسه ، وهو عندما يسمع هذا الرأى منها يخرج عن طوره ، ويصيح وكأنه ، مجنون ، ويصفها بأنها جاهلة وساحرة ، وينتهي به الأمر دائما بأن يقول لها

بصوت عال أنه لو عرف كيف يقول أشياء الوَرق هذه في اللحظة المناسبة فهل كان يمكن أن يتزوجها . وكانت هي الأخرى مسلحة ، فتصفه بأنه بائس وغزير الشعر ، وتتهمه بالجوع وأنه برتغالي ، وهو بما أنه كان ينتظر سماع هذه الكلمة حتى يضربها ، فإنه يشد الحزام ويجري خلفها في المطبخ حتى يتعب . وأنا ، في البداية كنت أحظى بضربة أو ضربتين . ولكني عندما ازددت خبرة أدركت أن الطريقة الوحيدة لعدم البلل هي ، ألا أعرض نفسي للمطر ، وهذا ماكنت أفعله . عندما أرى الأمور .. تتخذ هذا المظهر السيىء ، كنت أتركهما وحدهما وأمضي « روحوا في داهية » .

والحق أن الحياة في أسرتي لم يكن فيها من السرور إلا القليل ، ولكن بما أنه ليس في استطاعتنا أن نختار . وإنما نحن موجهون ، حتى قبل أن نولد . فبعضنا يذهب في جانب والآخرون يذهبون في جانب آخر . فقد كنت أحاول أن أرضى بنصيبي ، وكانت هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون اليأس ومنذ الصغر ، وهي الفترة التي يمكن فيها السيطرة على إرادة الناس ، أرسلوني فترة قصيرة إلى المدرسة . وكان أبي يقول إن الصراع من أجل الحياة شيء شديد القسوة ، وأنه ينبغي على الانسان أن يعد نفسه كي يواجهها بالأسلحة الوحيدة التي يمكن أن نقهرها بها وهي أسلحة الذكاء . كان يقول لي كل هذا دفعة واحدة وكأنه شيء معلوم ، وكان صوته في تلك اللحظات يبدو لي أكثر حنكة ويشتمل على نبرات لاتثير الشك في نفسي . وبعد ذلك وكأنه نادم ، كان يغرق في الضحك ، وينتهي به الأمر بأن يقول لي بلهجة فيها دعابة :

– لاتهتم ، يافتى هاأنا أتقدم في السن .

ثم يمضي برهة مفكرا ، ويكرر بصوت خفيض مرة وأخرى :

– هاأنا أتقدم في السن .. ! هاأنا أتقدم في السن !

وقد استمر تعليمى فى المدرسة لفترة قصيرة ، وبما أن أبى كان له طابع عنيف ومتسلط فى بعض الاشياء فإنه كان ضعيفا وصغير النفس فى أشياء أخرى وبشكل عام ، قد لاحظت أن الطابع الأول كان يمارسه فقط فى الموضوعات الصغيرة التافهة ، لأنه فى الموضوعات ذات الأهمية قليلا ماكان يؤكد عليها ، لا أدرى هل بسبب الخوف أم لماذا . وأمى لم تكن تريد أن أذهب إلى المدرسة ، وكلما حانت لها الفرصة ، بل حتى دون أن تحين ، عادة ماكانت تقول لى طالما لم تخرج من حياة الفقر فليس من المجدى أن تتعلم شيئا . وقد حرثت فى أرض ممهده ، لأنى أيضا لم أكن مشدودا لحضور الدروس ، ونحن الاثنين ، وبمرور الوقت ، انتهى بنا الأمر باقناع أبى فوافق على أن أترك الدراسة . وهكذا كنت أعرف القراءة والكتابة ، والجمع والطرح ، وبالفعل كانت لدى بعض المعارف التى تنفعنى . وعندما تركت المدرسة كان عمرى اثنى عشر عاما ، ولكن لماذا نستعجل ، فكل الاشياء تريد أن تأتى فى دورها وعلى رأى المثل « مهما صحوت مبكرا فإن الصبح لن يطلع إلا فى موعده » .

كنت ما أزال فى ميعة الصبا عندما ولدت أختى روساريو .

ولا أحتفظ من ذلك الزمن إلا بذكرى مضطربة ومبهمة ، ولا أدرى الى اى مدى سوف أحكى بصدق ماحدث ، سوف أحاول ، ومع ذلك أضع فى اعتبارى أنه إذا كانت حكايتى يمكن أن توصف بعدم الدقة ، فانها ستكون دائما أقرب الى الواقع من التخيلات ، التى يمكن أن تسبكها مستقيا إياها من الخيال ومن مهارة الفنان . وأذكر أن الجو كان حارا فى المساء الذى ولدت فيه روساريو ، ولعلنا كنا فى يوليو أو اغسطس . كانت الحقول هادئة ذابلة ، والطيور بمناقيرها تبدو وكأنها تريد أن تلعق عظام الأرض ، والناس والحيوانات مأخوذين ، والشمس هناك فى الأعالى ، مثل سيد مسيطر ، تضىء كل شىء ، وتحرق كل شىء .. وكانت ولادة

أمي دائما صعبة جدا ومؤلمة ، فقد كانت نصف عاقر ، وجافة بعض الشيء ، والألم أكبر من طاقتها ، وبما أن المسكينة لم تكن أبدا نموذجا للفضائل ولا للمكرمات وبما أنها لم تكن تعرف كيف تعاني وتصمت ، مثلي ، فانها كانت تحل كل شيء بالصياح ، وقد ظلت تصيح عدة ساعات عندما ولدت روساريو . لأن الولادة ، لاستكمال دائرة سوء الحظ ، كانت عسيرة ، وعلى رأى المثل :

امرأة عسيرة الولادة ولها شارب .. (تكملة المثل لا أكتبها نظرا لأن هذه السطور موجهة إلى شخص ذى مقام رفيع) .. وقد ساعدت أمي في الوضع امرأة من القرية ، هي السيدة انجراثيا ، سيدة الربوة ، وهي متخصصة في الندب والولادة ، نصف ساحرة وشديدة الغموض ، وكانت تحمل معها « خلطة » تضعها على بطن أمي كي تخفف ألمها ، ولكن بما أن هذه ، سواء بدهان أو بغيره ، ظلت تصيح حتى أنهكت قواها ، فإن السيدة انجراثيا لم تجد بدا من أن تتهمها بأنها زنديقة ومسيحية سيئة ، وبما أن صيحات أمي في تلك اللحظة كانت تنطلق مثل ريح شديدة ، فإني صرت أفكر ألا يمكن أن تكون ممسوسة ولكن شكي لم يستمر طويلا فسرعان ماتبين أن سبب هذه الأصوات الشنيعة هي أختي الجديدة .

وقد ظل أبي مدة طويلة يتمشى بخطوات واسعة في المطبخ .

وعندما ولدت روساريو انطلق نحو سرير أمي ، وبدون أى اعتبار للظرف الذى تمر به بدأ يصفها بأنها خبيثة ومحتالة ويهمزها بشراك في يده لدرجة أني كنت مندهشا كيف لم يطحنها حية . وبعد ذلك مشى ولم يعد إلا بعد يومين كاملين ، وعندما عاد كان سكرانا مثل قربة نبيذ ، اقترب من سرير أمي ثم قبلها ، وقد تركته أمي يقبلها . وبعد ذلك ذهب لينام في الاسطبل .

أما روساريو فقد نصبوا لها هيكلا (مهدا) من صندوق عميق نوعا ما ، ووضعوا في أرضيته مخدة كاملة من وبر الماعز ، وهناك وضعوها بجانب سرير أمي ، ملفوفة فى نطاق من القطن وأحكموا لفها حتى إنني كنت كثيرا ما أفكر أنهم سوف يخذقونها . ولا أدري لماذا ، حتى ذلك الحين ، كان يحدث لى أن أتخيل الأطفال الصغار دهنيا مثل اللبن ، ولكن الذى أتذكره فعلا هو الانطباع السيء الذي اعطته لى أختى الصغيرة عندما رأيتها لزجة وملونة مثل حيوان الكنغر المشوى ، وكانت برأسها خصلة شعر خفيفة مثل شعر الزرزور أو شعر فراخ الطير فى أعشاشها ، فقدتها بمرور الشهور ، ويداها الصغيرتان المشدودتان الناصعتان اللتان كانت رؤيتهما تصيب المرء بقشعريرة ، وعندما فكوا لها اللفَّة بعد ثلاثة ايام أو اربعة من ولادتها كى ينظفوها قليلا ، استطعت أن أتثبت جيدا كيف كانت ، ويمكن أن اقول إنها لم تصبنى بالقرف مثل المرة الأولى : فلونها كان قد أصبح رائقا ، والعينان ـ اللتان لم تفتحهما بعد ـ كانتا تبدوان وكأنها تريد تحريك الجفون واليدان كانتا تعطيانى انطباعا بأنهما قد صارتا رخوتين ، وقد نظفتها جيدا السيدة إنجراثيا بمياه الزامور ، وهل هناك ألا ذلك ، لكنها كانت شفاء البائسين ، نعم ثم لفتها من جديد فى النطاق الذى اقتطعوا منه بعض الأجزاء ، ورمت جانبا بعض القطع الأخرى التى اتسخت ، لغسلها ، وتركت الطفلة راضية جدا ، حتى لقد ظلت نائمة ساعات متواصلة ، ونظرا للصمت

المطبق فى المنزل لم يشعر أحد أنه كانت لدينا حالة ولادة ، كان أبى يجلس على الأرض فى مواجهة الصندوق ، وقد مرت عليه الساعات وهو ينظر إلى المولودة بوجه محب مثلما قالت السيدة انجراثيا ، حتى أنى جعلت أنسى تقريبا نظامه الحقيقى ، وبعد ذلك نهض ، وذهب ليقوم بجولة فى القرية ، وعندما لم يخطر على بالنا ، وفى الساعة التى لم نتعود أن نراه آتيا فيها ، وجدناه مرة أخرى بجوار الصندوق بوجه رقيق ، ونظرة متواضعة جدا لدرجة أن من يراه فى تلك اللحظة ، ولايعرفه ، قد يعتقد انه أمام القديس روكى نفسه

وقد كبرت روساريو دائما ضعيفة ونحيفة ـ فما أقل الزاد الذى كان يمكن أن تحصل عليه من ثديى أمى الفارغين ! وكانت أيامها الأولى فى غاية الصعوبة لدرجة أنها فى أكثر من مرة كانت على وشك أن تمضى . وكان أبى يشعر بالقلق عندما يرى البنت لاتتقدم ، وبما أنه كان يحل كل شيء بالقاء كمية أكبر من النبيذ فى حلقومه ، فقد عشت ، أنا وأمى ، فترة فى غاية السوء لدرجة أننا كذا ننحسر على الأيام السالفة ، التى كانت شديدة القسوة بالنسبة لنا لاننا لم نكن قد عرفنا أسوأ منها . إنها اسرار طبيعة البشر الذين ينفرون كثيرا مما لديهم حتى يأتى وقت يتحسرون فيه على مافات ! .. أما أمى التى كانت قد تدهورت صحتها أكثر مما قبل الوضع ، فقد صارت تضربنا « علقات » ساخنة ، وبالنسبة لى لم يكن من السهل عليها أن تمسك بى ، ومن ثم كانت تضربنى بطرف الحذاء فى غيظ عندما تصطدم بى ، حتى لقد فر الدم ذات مرة من عجزى (معذرة) أو تترك علامات فى ضلوعى وكأنها مستها بحديد ساخن .

ورويدا رويدا أخذت الطفلة تشفى وتستعيد قواها بفضل أنواع شوربة من النبيذ القانى وصفها بعض الناس لامى ، وبما أنها كانت ذات طبيعة متيقظة ، والوقت لايمضى سدى ، فإنها اذا

كانت قد تأخرت شيئا ما عن المعتاد فى تعلم المشى فإنها بدأت تتكلم في سن مبكرة جدا بكثير من السهولة وكثير من التماسك ، حتى أننا جميعا كنا مذهولين من ملاحتها .

وقد مر هذا الوقت الذى يكون فيه الأطفال جميعا سواء . وكبرت روساريو ، حتى أصبحت صبية تقريبا ، وعندما كنا نتأمل فيها كنا نلاحظ أنها أكثر انتباها من عظاءه ، وبما أنه لم يحدث أبدا فى عائلتى أن فكر أحد فى أن يستخدم دماغه فى الاشياء الموجودة أمامنا فقد أصبحت الطفلة بسرعة هى ملكة البيت ، وجعلتنا جميعا نمشى مستقيمين مثل القضبان . اذا كان الخير هو حاستها الطبيعية فانها كانت تستطيع ان تفعل أشياء كبيرة ، ولكن إذا كان الله قد أراد ألا يتيمز أحد منا بميول طيبة فقد وجه خطواتها نحو ضرورات أخرى ، وبسرعة أدركنا أنها وإن لم تكن بلهاء إلا أنه كان من الأفضل أن تكون كذلك ، فقد كانت تصلح لكل شىء فيما عدا الشىء الطيب : فكانت تسرق بخفة ورشاقة مثل غجرية عجوز ، وتعودت على الشرب منذ الصبا ، واشتغلت قوادة لمغازلات العجوز ، وبما أنه لا أحد اهتم بأن يقومها ـ ويضع قدميها على طريق الخير ـ فقد مضت من سيىء إلى أسوأ ، حتى جاء يوم ، والصبية عمرها أربعة عشر عاما جرفت فيه كل ماكان قد بقى فى كوخنا من قيمة قليلة ، فتوجهت الى مدينة تروخيللو ، الى بيت الفيرا .

ويمكن أن تتصور الاثر الذى احدثه مشيها فى بيتنا ، ذلك أن أبى كان ينحى باللائحة على أمى ، وأمى تنحى باللائحة على أبى ..

وأكثر شىء افتقدنا فيه روساريو كان فى موضوع فضائح أبى ، لأنها عندما كانت موجودة كان يحاول أن يثيرها فى حالة وجودها خارج البيت ، أما الآن وبعد أن تركت البيت تماما فإن كل الأوقات أصبحت مرتعا له لإشعال النيران . ومن العجيب أن

نفكر أن أبى ـ الذى لم يكن يستميله أحد لتوحشه و « نشافة » دماغة ـ كانت هى الانسانة الوحيدة التى يستمع اليها ، فقد كانت تكفى نظرة من روساريو لكى تهدىء من ثورة غضبه، وفى أكثر من مرة أدخرت ضربات « محترمة » لمجرد أنها كانت حاضرة . من الذى كان يظن أن ذلك الانسان الفظ يمكن أن تسيطر عليه مخلوقة بضة كهذه !

وقد ظلت فى تروخيللو خمسة شهور تقريبا ، ثم عادت إلينا بسبب إصابتها بالحمى ، نصف ميتة ، وبقيت طريحة الفراش مايقرب من عام ، لأن نوبات الحمى التى كانت وبيلة ، جعلتها قريبة جدا من عالم الموتى ، ونظرا لمهنة والدى ـ الذى كان سكيرا وعربيدا ، هذا صحيح ، لكنه كان مسيحيا قديما بل كان مستقيما جدا ـ وصل الأمر إلى إقامة القداس عليها وإعدادها تمهيدا لتشييعها الى الرحلة الأخيرة . ولكن المرض ، مثل كل شىء ، له نوباته ففى بعض الأيام التى كانت تبدو فيها قد انتعشت كانت تعقبها ليال نحس فيها أنها باقية ، وكان مزاج والدى مثل الكآبة ، ومن ذلك الزمن الحزين لا أحتفظ بذكرى هناءة عدا واحدة هى أنها من الاشهر التى مرت دون أن تحدث فيها لكمات بين تلك الجدران ، لقد كان العجوزان فى حالة ضيق .

وكانت الجارات تغشين حجرتها كى توصيها باستخدام أعشاب معينة ، ولكننا كنا نثق أكثر فيما تقدمه لنا السيدة انجراثيا ولهذا كنا نهرع اليها نستمع الى نصائحها ، لأننا كنا نلمس منها بعض الشفاء .. وكان العلاج الذى أمرت به ، يعلم الله ، معقدا ، ولكن بما أنها أعدته بكل مالديها من حواس فقد وجب علينا أن نجربه ، لأنه بالرغم من بطء الشفاء فقد كان يرى عليها بعض التحسن .. وكما يقول المثل فإن العشب السيىء لايموت أبدا ، ولايعنى هذا أنى أريد بذلك أن أقول أن روساريو كانت سيئه (وإن لم أستطع أيضا أن اقول إنها كانت طيبة)

فالحق أنها بعد أن تناولت الوصفة التى أمرت بها السيدة انجراثيا لم يعد إلا أن تنتظر مرور الوقت حتى تستعيد صحتها . ومعها بهاءها ورونقها .

ولم يكن شفاؤها خيرا ، فعندما عادت الفرحة مرة اخرى إلى بيت ابو ي ، وكان الشيء الوحيد الذى اتفقا عليه هو انشغالهما بالبيت ، عادت الثعلبة تفعل مثل القرصان ، تملأ الكيس بمدخرات المسكين ، ومثلما يحدث على الطريقة الفرنسية ، عادت لترفع برقع الحياء ، وتمشى ، هذه المرة متوجهة ألى المندراليخو ، حيث توقفت فى بيت نيفيس المدريدية ، هذا صحيح ، أو هذا ما أذكره وان كان أكثر الناس سفالة يظل له دائما بعض خيوط من الخير ، ذلك لأن روساريو لم تنسنا نسيانا كاملا ، وفى بعض الأحيان ـ فى اعياد ميلادنا أو فى رأس السنة ـ كانت ترسل إلينا بصديرى ، بالرغم من أنه كان يأتى « محزقا » ونأخذه على أنه يصلح حزاما لبطن ممتلئة ، إلا أن قيمته كانت تنبع من أنه كان يدلنا على أنها بالرغم مما تتطلبه مهنتها من لبس مبهر فانها لاتسبح فى رغد من العيش . وقد تعرفت فى ألمندراليخو على الرجل الذى رتب لها الانهيار ، لا أقصد انهيار الشرف ، لانها كانت قد سقطت تماما فى ذلك الحين ، وإنما أعنى انهيار الجيب ، ذلك أنها بمجرد أن فقدت الأولى (الشرف) كان الشيء الوحيد الذى ينبغى أن تنظر إليه هو الثانية . وكان هذا الرجل يسمى باكو لوبيث وله اسم آخر سيىء هو « أبو شداد » وبالرغم من أنفى أننى لابد أن أعترف أنه كان فتى جميلا ، وان لم تكن نظرته فيها كثير من الصرامة ، لأن أحدى عينيه كانت من الزجاج فى المكان الذى يعلم الله فى أى موقف فقد عينه الجسدية ، ومن ثم فإن نظرته كان بها بعض الحول الذى لايدرك بسهولة ، كان طويلا ، نصف أشقر ورشيقا ، ويمشى فى استقامة شديدة حتى أن الذى أطلق عليه للمرة الأولى اسم ابوشداد لم يخطيء

بالتأكيد ، ولم يكن لديه من وظيفة إلا وجهه ، لأن النساء كانت تصرف عليه ، ولذلك فضل ألا يعمل وهو شيء إذا كان يبدو لي سيئا ، فلا أدرى هل ذلك لأني لم تتح لي الفرصة أبدا لكي أفعل ذلك . وطبقا لما يروى فإنه في بعض الأوقات كان يقوم بمصارعة العجول في الميادين الاندلسية ، وأنا لا أدرى هل أصدق ذلك لأنه لم يكن يبدو لي رجلا ذا قيمة إلا مع النساء فقط ، ولكن بما أن هؤلاء النسوة ، ومنهن أختي ، كن يثقن فيه ثقة عمياء فقد كان يعيش حياة طيبة لأنك تعرف كيف تغالي النساء في تقديم مصارعي الثيران . وذات مرة ، كنت أمشي هائما ، أطوف بضيعة خورالبس - التابعة للسيد خيسوس - فالتقيت به وكان [illegible] من المندراليخو بعد أن قطع خمسمائة خطوة ليشم الهواء في الجبل ، كان يرتدي حلة جميلة بلون القهوة ، وقبعة [illegible] وبيده عصا في يده . وقد تبادلنا التحية ، وهو بخبثه [illegible] لا أسأله عن أختي أراد أن يستنطق لساني [illegible] [illegible] الجمل مني ، لكني كنت أقاوم ، ولابد أنه لاحظ كيف [illegible] في نفسي ، لأن الأمر لا يحتاج الى شيء [illegible] غني عن ذلك . وعندما وضع كل منا يده على [illegible]
قال لي

- وروساريو ؟
- أنت تعرف .
- أنا ؟
- نعم ، واذا كنت [illegible] لاتعرف فمن !
- ولماذا لابد أن [illegible] ؟

كان يقول هذا الكلام بجد مثلما يقول أي انسان أنه لم يكذب في حياته ، وكان يضايقني أن أتحدث معه عن روساريو . وهكذا ترى سيادتك كيف تكون الاشياء .

وأخذ الرجل يضرب بعصاه ضربات خفيفة على عشب الزعتر .

- إذن نعم . لماذا ينبغي أن تعرف ذلك ! حسنا !
ألا تريد أن تعرف ؟

- اسمع يا أبوشداد ! اسمع ياأبوشداد ! أنا أصبحت فتيا ولا أقول كلاما فقط ! فلا تغوني ! لا تغوني !

- ولكن كيف يجب أن أغويك وأنت لاتدرى أين ؟ ولكن ماذا تريد أن تعرف عن روساريو ؟ وما الصلة التي بينك وبين روساريو ؟ أنها أختك ؟ حسنا . وماذا ؟ أيضا هي خطيبتي ، اذا [illegible]

وقد صدمني بالكلمة . ولكن لو أن الأمر وصل بنا إلى التراشق بالأيدي أقسم لسعادتك ياموا تي انى كنت سأقتله قبل أن يلمس شعرة مني . ولقد رغبت أن ابرد لأنه كان يعرف شخصيتي ولأنه في النهاية ليس رجلا ورجل ليس من الرجولة أن تتشاجر ومعك السكين في يدك بينما الآخر ليس معه شيء .

- اسمع ياأبوشداد ، من الأفضل أن نكف عن الكلام !
إذن مع السلامة ؟ حسنا . فلنكن كذلك ! وأنا ماذا ؟
قال أبوشداد ضاحكا . وبدا كأنه يريد أن يتعارك .
- قل لي لماذا أقول لك ؟
- هكذا
- لو كنت أنت خطيب أختي لقتلتك .

ويعلم الله أن سكوتي في ذلك اليوم كلفني صحتي . لكني لم أكن أريد أن أضربه . وقد استغربت من أن يحدثني هكذا ، ففي القرية لم يجرؤ أحد على أن يقول لي نصف هذا الكلام .

- وإذا قابلتك مرة أخرى تطوف هكذا ، سوف أجعلك ضحية المولد في الميدان .

- هذا كلام سوقي جدا !

ـ وخزات !

ـ اسمع ، ياأبوشداد ! .. اسمع ، ياأبوشداد !

● ● ● ● ● ●

في ذلك اليوم دخلت شوكة في أحد ضلوعي . ومازالت موجودة حتى الآن .

لماذا لم أنتزعها في تلك اللحظة هذا شيء لا أدري به حتى الآن .. وبعد مرور الزمن ، وفي موسم آخر جاءت أختي إلينا ربما للنقاهة من نزلة حمى أخرى ، وقد حكت لي أنا بداية تلك الكلمات ، قالت : عندما جاء أبوشداد في تلك الليلة إلى بيت نيفيس ليرى روساريو استدعاها جانبا

ـ هل تعرفين أن لك أخا ليس رجلا ولا شيئا ؟

ـ ...

ـ وأنه يتكور مثل الأرانب عندما تسمع أصواتا ؟

وقد دافعت أختي عني ، لكن ذلك لم يفدها في شيء فالرجل كان قد كسب ، كسبني أنا ، وهي المعركة الوحيدة التي خسرتها لأني لم أمض في وجهتي .

ـ اسمعي ، ياحمامة ، هيا نتحدث عن شيء آخر ماذا معك .

ـ ثماني بيزيتات .

ـ لاغير ؟

ـ لاغير . ماذا تريد ؟ الأيام وحشة .. !

وعندئذ ظل يضربها أبوشداد بالعصا على وجهها حتى تعب .. وبعد ..

ـ تعرفين أن لك أخا لا هو رجل ولا شيء ؟

● ● ● ● ●

وقد استحلفتني أختي بصحتها أن أبقى في القرية .

أما شوكة الضلع فقد بدأ أنها تحركت قليلا ، لماذا لم أنتزعها في ذلك الوقت هو أمر لا أدرى به حتى الآن .

أعتقد أنك سوف تعذرني على قلة النظام الموجود فى الحكاية لانى اتبع الشخص ولا اتبع التسلسل الزمنى ، مما يجعلنى اقفز من البداية للنهاية ومن النهاية للبداية مثل الاستاكورا المضروبة .

ولكن هذه الحكاية بطريقة ما ، ليست طريقتنا هذه . يمكن النظر إليها على هذا النحو ، لانى اخرجها كيفما اتفق ، عفو الخاطر ، دون أن اتوقف عند البناء لتصبح رواية ، لأنى فضلا عن احتمال ألا يتيسر لى ذلك ، سوف أظل معرضا لخطر الذى يمكن أن يأتينى عندما ابدأ اتكلم وأتكلم حتى اختنق بسرعة واتوقف ولا أجد لنفسى مخرجا .

أن السنوات تمضى فوقنا مثلما تمضى فوق كل الناس ، والحياة فى بيتى كانت تسير بنفس طرقها المعهودة . واذا كان لاينبغى على أن اخترع ، فإن هناك أخبارا لا تتخيلها يمكن أن اقدمها لك عن ذلك الحين .

فبعد مولد الطفلة بخمسة عشر عاما . وعندما كانت أمى ممصوصة تماما ، وأشباح الزمن الماضى ماثلة أمامنا كان أقل شىء يمكن أن نفكر فيه هو أن تمنحنا أمى أخا جديدا ، لقد امتلأت بطن العجوز ، وتخيل سيادتك ممن . لانى أشك أنها فى تلك الفترة كانت على صلة بالسيد رفائيل . ولم يبق إلا أن ننتظر الأيام المحددة حتى نستقبل شخصا جديدا فى الأسرة .

وقد اقترن مولد المسكين ماريو ـ هكذا أطلقنا على الأخ

الجديد - بكثير من الحوادث والمضايقات أكثر من أى شىء أخر ،
لأنه لم يكن يكفى ان يبلغ السيل الزبى . وكان أصوات أمي وهي
تضع كانت هى الأخرى قليلة ، حتى يتفق كل هذا مع مزاج أبي
الذى لو لم يكن مأساويا إلى أقصى حد لجعل الإنسان يغرق في
الضحك عندما يفكر فيه هكذا في برود . وكان أبي قد ظل يومين
محبوسا في الخزانة عندما أتى ماريو إلى العالم لأنه عضه كلب
عقور ، وبالرغم من أنه في البداية كان يبدو بمنأى عن داء
الكلب . فقد اضطروا بعد ذلك أن يضعوا له ضمادات جعلتنا
جميعا في حالة ترقب . وقد أخبرتنا السيدة أنجيلينا أن نظرته
يمكن أن تؤدى إلى اجهاض أمي . وبما أن المسكين لم يكن له
علاج ، اخترنا أن نحبسه بمساعدة بعض الجيران وبحذر شديد
قدر الاستطاعة . لأنه كان يطلق ، عضات ، يمكن أن تلتهم ذراع
أى واحد يقترب منه بدون حذر . ومازلت حتى الآن أذكر تلك
الساعات بأسى وخوف .. ياإلهى !

كم كان حجم القوة التى احتجنا إليها جميعا حتى نقلل من
هياجه !

كان يطأ الأرض مثل أسد ، ويقسم أنه سوف يقتلنا جميعا ،
وكانت نظرته تقذف بالشرر ، وأنا أقسم أنه كان يمكن أن يقتلنا
فعلا لو أن الله أراد ذلك ، يومان إذن ظل فيهما محبوسا . يطلق
تلك الأصوات ، ويرفس الباب بقوة حتى اضطررنا أن نسنده
ببعض الاخشاب ، ومن ثم لايدهشنى أن ماريو . الذى حركه هو
الآخر صياح أمه ، قد جاء إلى العالم مرعوبا وفيه بلاهة . وقد
أنتهى الحال بأبى إلى الصمت فى الليلة التالية - وكانت ليلة يوم
الملوك - وعندما ذهبنا لنخرجه معتقدين أنه مات . وجدناه ،
هناك مرميا على الأرض ، والفزع باد على وجهه وكأنه قد دخل في
الجحيم .. وقد أصابنى رعب كبير عندما وجدت أمى . بدلا من أن
تبكى - كما كان منتظرا - تأخذ فى الضحك ، ولم أجد بدا من أن

أكتم الدموع التى كانت تريد أن تترقرق فى عينى عندما رأيت الجثة . حيث كانت العينان مفتوحتين ، ومليئتين بالدم . والفم نصف مفتوح . وفيه اللسان بنفسجى وممدود نصفه فى الخارج وعندما حانت لحظة دفنه باركنى السيد مانويل القسيس عندما رآنى وأنا لا أتذكر كثيرا مما قاله لى . فقد حدثنى عن الحياة الآخرة وعن السماء والجحيم . والعذراء مريم وعن ذكرى والدى . وعندما عن لى أن أقول له بالنسبة لذكرى والدى أن الأفضل هو ألا أتذكره قال لى السيد مانويل وهو يضع إحدى يديه على رأسى ، إن الموت يحدل الناس من مملكة إلى أخرى وإنه أى الموت ، يغار من أن نكرد من أدركه لكى يوضع أمام حكم الله . حسنا ، لم يكن كلامه هكذا ، وإنما نطق بكلمات رقيقة جدا وموزونة ، ولكن ما أراد أن يقوله لى ليس بعيدا فى فحواه عما كتبته هنا . ومنذ ذلك اليوم كلما رأيت السيد مانويل أحييه وأقبل يده . ولكنى عندما تزوجت قالت لى زوجتى إنه كان يبدو مخنثا وهو يفعل تلك الأشياء ومن ثم فإنى لم أستطع أن أحييه بعد ذلك . وقد علمت فيما بعد أن السيد مانويل قال عنى إننى كنت بهذا الشكل مثل وردة وسط كوم من الزبالة ، والله يعلم أنى فى تلك اللحظة أحسست برغبة فى أن أخنقه ، وبعد ذلك هدأت . وذلك أنى ذو طبيعة حادة ولكن الأمر ينتهى بى بسرعة إلى النسيان . وإذا فكرت فى الأمر جيدا ، لم أكن أبدا متأكدا من أنى فهمت الأمر من كل جوانبه ، فربما لم يقل السيد مانويل شيئا - ولا ينبغى أن نصدق الناس فى كل ما ينقلون - وحتى لو قال ذلك ..

من يعرف ماذا أراد أن يقول ! من يعرف أنه لم يكن يريد أن يقول مافهمته أنا ! .

ولو أن ماريو كانت قد تفتحت حواسه عندما ترك هذا الوادى من الدموع ، فمن المؤكد أنه كان سيغادره غير راض عنه . لقد

عاش قليلا بيننا ، ويبدو أنه كان قد شم رائحة الميراث الذى ينتظره ، وفضل أن تكون تضحيته فى صحبة البرءاء فى البرذخ . ويعلم الله أنه أصاب فى اختيار الطريق ، فكم ادخر من آلام عندما اختصر سنوات ، فعندما غادرنا لم يكن قد أكمل عشر سنوات ، لكنها كانت قليلة بالنسبة للكثير الذى كان سيعانيه ، وكافية حتى ينطق بالكلام ويمشى . وهما شيئان لم يعرفهما على الاطلاق . فالمسكين لم يتجاوز مرحلة الحبو على الأرض وكأنه حية ، ومجرد التهتهة بالحنجرة والأنف وكأنه فأرة : وهذا هو الشىء الوحيد الذى تعلمه . ففى السنوات الأولى من حياته أصبحنا كلنا نحس أن البائس الذى ولد عبيطا لابد أن يموت عبيطا ، وقد ظل عاما ونصف العام حتى ظهرت له أول عظمة فى الفم وعندما ظهرت جاءت بعيدة عن مكانها لدرجة أن السيدة إنجراثيا التى كانت فى معظم الأحيان عمادا لنا ، اضطرت أن تنتزعها له بالدوبارة حتى لاتشك له لسانه ، وفى نفس الأيام تقريبا ظهرت له حصبة فى العجز (معذرة) ، ولعلها جاءت ، كما نعلم ، من الدم الكثير الذى ابتلعه عندما خلعوا له السن ، وهذه الحصبة جعلت ردفيه وكأنهما مسلوخان ، وأثرت على لحمه الحى لأن البول كان يختلط بالقيح الناتج عن البثور . وكان الطفل يبكى بكاء شديدا لدرجة أن أى قلب مهما كان متحجرا لابد وأن يهتز لبكائه .. ثم مرت فترة لا بأس بها من الهدوء ، كان الطفل خلالها يلعب بزجاجة هى أكثر شىء يلفت انتباهه ، أو يستلقى فى الشمس ليستدفىء ، فى الحوش أو أمام باب الشارع . وهكذا مضت حياة هذا البرىء طيبة فى بعض الاحيان وسيئة فى احيان أخرى . لكنه أصبح أكثر هدوءا حتى جاء يوم ـ والطفل لديه أربع سنوات ـ قلب الحظ له فيه ظهر المجن ، دون أن يبحث عن ذلك أو يرغب فيه ، ودون أن يضايق أحدا ، ودون أن يعصى الله ، ذلك أن خنزيرا (معذرة) أكل له أذنيه ، وقد

وضع له السيد رايموند ، الصيدلي ، مسحوقا أصفر ، من السيروفورم ، وكم كان المرء يصاب بالألم وهو يراه مصفرا ، وبدون أذنين ، لدرجة أن نساء الجيران جميعهن كن يحملن اليه ـ بدافع الشفقة ـ لقمة القاضي أيام الآحاد ، وبعضهن يأتين باللوز ، وأخريات يأتين بالزيتون الموضوع في الزيت ، أو في قليل من السجق .. مسكين ياماريو !

كيف كان يشكرهن على هذه الأشياء بنظرة من عينيه السوداوين !

ولو أنه كان في حالة كبيرة من السوء حتى ذلك الحين فإن سوءا اكبر كان ينتظره بعد مسألة الخنزير هذه (معذرة) كان يقضي الأيام والليالي يبكي ، ويعول مثل شخص مهمل ، وبما أن الصبر القليل لدى الأم قد نفد في الوقت الذى كانت فيه في أشد الحاجة إليه ، أى إلى الصبر ، فقد كان يقضي الشهور ملقى على الأرض ، يأكل مايلقون به إليه ، وكان شديد القذارة لدرجة انني ، على الرغم من أني ـ ولماذا نكذب ؟ ـ لم أكن أغتسل كثيرا ، كنت أصاب بالقرف منه . وعندما كان يرى خنزيرا ، (معذرة) أمامه ، وهو شيء يحدث كثيرا في الأقاليم ، كان الأخ يصاب بحالة هياج ويبدو مثل المجنون ، يصيح بقوة أكثر بكثير من العادة ، ويتعجل في الاختفاء خلف أى شيء ، ويظهر الفزع على وجهه وعينيه حتى كنت أشك في أن هذا الفزع يمكن أن يوقف لوسيف نفسه (أمير الملائكة المتمردين - المترجم) من النزول إلى الأرض .

وأذكر أنه ذات يوم ـ كان يوم إحد ـ في احدى هذه الملمّات كان في حالة رعب فظيعة ، وفي حالة غيظ من الداخل ، وقد عن له أن يهاجم السيد رفائيل في هربه ـ والله هو الأعلم لماذا وكان السيد رفائيل في البيت ، لأنه منذ موت أبي ، كان يدخل البيت ويخرج وكأنه في ارض مفتوحة ، وكان أسوأ شيء خطر على بال المسكين هو أن يعض العجوز في ساقه ، لكنه لم يفعل ذلك أبدا ،

لأن العجوز ركلة بالرجل الأخرى ، ركلة في أحد جروحه جعلته مثل الميت فاقد الاحساس ، وتدفق الدم منه غزيرا حتى لقد ظننت أن دمه انتهى .. وكان العجوز يضحك وكانه قام بعمل بطولى ومنذ ذاك اليوم أحسست نحوه بكراهية شديدة . واقسم لك بشرفى ، أنه لولم يأخذه الله من امامى لفعلت به الاعاجيب فى حالة ما أذا أتيحت لى الفرصة لذلك

وقد ظل الطفل مرميا بطوله كله ، بينما أمى لاتتقدم لأخذه

- وأؤكد لك أنى أحسست بالفزع فى تلك اللحظة التى رايتها فيها لا مبالية - وكانت تضحك ووجهها للسيد رفائيل - أما انا ، والله هو المطلع ، فلم تنقصنى الأرادة لانهاضة . ولكنى فضلت ألا أفعل ذلك .. ولو أن السيد رفائيل فى تلك اللحظة اتهمنى باللين ، أقسم أنى كنت ساسحقه امام أمى

ثم أنى توجهت نحو البيوت فى محاولة لكى انسى . وفى الطريق قابلت أختى - التى كانت فى ذلك الحين تتجول فى القرية - وقد حكيت لها ماحدث ، ورأيت الغضب يطل من عينيها . حتى جعلنى ذلك أتصور أنها يمكن أن تكون أسوأ عدو . وتذكرت لا أدرى لماذا ، أبوشداد ، وضحكت عندما خطر ببالى أن أختى يمكن أن تضع له تلك الأعين .

وعندما عدنا إلى البيت ، بعد ساعتين طويلتين من هذه الواقعة ، كان السيد رفائيل قد ذهب ، وكان ماريو مازال ملقى فى نفس المكان حيث تركته ، يئن بصوت خفيض ، وفمه فى الأرض ، والجرح أكثر قتامة وسوءا حتى لقد كان يبدو مثل شخص كوميدى صائم ، أما أختى التى اعتقدت أنها كانت ستثير مشاجرة فقد رفعته من الأرض كى تسنده مضطجعا فى الصندوق .. فى ذلك اليوم بدت لى فائقة الجمال ، بلباسها ذى اللون الأزرق على مثال لون السماء ، ومزاجها كأم برية ، لم تكن ولن تكون كذلك .

وعندما غادر السيد رفائيل المكان ، تناولت أمي ماريو ، ووضعته في حضنها . وظلت تلعق له جرحه طوال الليل ، مثل كلبة تلحس صغارها . وقد أسلم الصبي نفسه للحب وهو يبتسم .. ظل نائما ، وبحيث على شفتيه إشارة تدل على أنه كان يبتسم . كانت تلك الليلة ، بالتأكيد ، هي المرة الوحيدة في حياته التي رأيته فيها يبتسم

وقد مرت فترة بعد ذلك لم ينتكس خلالها . ولكن . بما أن الذى يطارده القدر لا يمكن أن يفر منه ولو كان فى بروج مشيدة . فقد جاء يوم لم نعثر عليه فيه فى أى ركن . ثم ظهر مختنقا فى دن من الزيت . وجدته أختى روساريو . كان فى هذا الوضع يبدو مثل هامة عصفت بها الريح . مقلوبا على حافة الدن . وأنفه مسنودة على طين القاع . وعندما رفعناه . كان خيط رفيق من الزيت يسقط من فمه مثل فتيل من الذهب ولعله كان يتسرب أيضا إلى بطنه . أما شعره الذى كان فى حياته بلون الرماد المنطفىء . فقد كان يسطع ببريق ناضر جعلنا نظن أنه بموته قد بعث . وهذا هو الشيء الغريب الذى أتذكره من موت ماريو

أما أمى فإنها لم تبك أيضا على موت ابنها . ولابد أن أعماق هذه المرأة كانت جافة جدا مثل قلبها الشديد القسوة لدرجة أنه لم تترقرق فى عينيها بعض الدموع التى تشير بها إلى إحساسها بمأساة الطفل ... وبالنسبة لى أستطيع أن أقول . ولا أشعر بالعار من ذلك . أنى قد بكيت مثلما بكت أختى روساريو . وأن كراهيتى لأمى بلغت مبلغا كبيرا . وبما أنى كنت أنمو بسرعة . فقد أصبحت أخاف من نفسى . إن المرأة التى لا تبكى هى مثل النبع الذى لا يخرج منه الماء . لا تصلح لشيء . أو هى مثل طائر السماء الذى لا يصدح . وينبغى . إذا أراد الله . أن يسقط جناحاه . لأنه إذا نقصت الطيور واحدا فلن يكن ثمة أى ضير فى ذلك .

وقد فكرت كثيرا . فى كثير من الأحيان . ومازلت أفكر حتى الآن هل يجب علىّ أن أقول الحقيقة . وأوضح السبب الذى به فقدت

احترامي لأمي . أوَّلا . ثم حبي لها . ثم "شكلها" كله بمرور السنوات : وقد فكرت كثيرا في ذلك لأنني كنت أريد أن أستوضح جيدا من ذاكرتي ماهو الوقت الذي لم تعد فيه بالنسبة لقلبي أماً . وفي أي وقت بعد ذلك . تحولت إلى عدو . عدو غليظ ، وليس هناك كراهية أعظم من كراهية الدم الواحد : عدو امتص كل ما لدي [illegible] لأن الإنسان لا يكره بشدة إلا من يتفق معه في [illegible] دائما تكره الشبيه . وبعد تفكير كثير ، وبعد [illegible] لم يبق لي إلا أن أؤكد أن إحترامي لها كنت [illegible] . عندما لم أجد فيها فضيلة واحدة يمكن [illegible] موهبة من الله يمكن أن أنقلها ، ثم إنها غادرت [illegible] كل هذا السوء . الذي لم يكن يتسع له صدري [illegible] أو ما يقال الوصول إلى الكراهية فإني تأخرت بعض [illegible] بلوغ ذلك - لأن الحب والكراهية ليسا مسألة يوم أو يومين [illegible] توقفنا عند أيام موت ماريو فيمكن أن أقول إن بلوغي [illegible] الكراهية لها لا تكاد تتعدى تلك الأيام .

وقد قمنا بتجفيف جسد الطفل بضمادات من الكتان حتى لا يكون كثير الشحم عند السؤال . وجهزناه ببعض الأقمشة التي كانت موجودة في المنزل . وبنعلين من القنب ذهبت أنا لإحضارهما من القرية . ورباط عنق صغير خبازي اللون معقود حول الرقبة مثل فراشة أقبلت في براءتها كي تقف على ميت . أما السيد رفائيل الذي يبدو أنه كان يحس بالأسى تجاه الميت ، بينما كان يعامله وهو على قيد الحياة بدون شفقة ، فقد ساعدنا في اعداد التابوت . وكان الرجل يذهب ويجيء من جانب لآخر في نشاط وفخار كأنه عروسة . تارة يحمل بعض المسامير ، وتارة يحمل لوحا ، وربما يأتي بزجاجة السبيداج ، وقد وجدتني أركز كل اهتمامي في نشاطه وإحساسه بالفخر ، لأنني ، دون أن أعرف ، لا في ذلك الحين ولا الآن ، لماذا كان يفعل ذلك ، فقد أحسست وجدانيا أنه من أعماقه كان يستحم في مياه الورد . وعندما قال بحركة فيها شرود :

ـ لقد قبضه الله إليه ! يالملائكة السماء ! ـ جعلني أغرق في التفكير لدرجة أن ذلك يكلفني الآن عملا شاقا إذا حاولت أن أستعيد ماحدث لي حينئذ . وبعد ذلك كان يكرر الجملة مثل شطر من أغنية ، بينما هو يقوم بدق المسامير في الألواح ، أو يقوم بالدهان :

ـ يالملائكة السماء ! يالملائكة السماء ! ـ وكانت كلماته تدق في قلبي وكأنها ساعة في الداخل ، ساعة سوف ينتهي بها الأمر أن تمزق صدري . ساعة تسمع لكلماته المنطلقة قليلا قليلا وكأنها تخرج بصعوبة . وعيناه الجاحظتان الزرقاوان مثل عيني الأفعى . والاثنان كانتا تنظران إلى في محاولة كبيرة لإحداث نوع من التلاقي . في الوقت الذي لم يكن يجدي في نفسي تجاهه إلا الكراهية الشديدة العميقة ومازلت أذكر حتى تلك الساعات

ـ يالملائكة السماء ! يالملائكة السماء !

تأمل : ابن المكارة ، كيف كان يمشي مثل الثعلب ، ولكن فلنتحدث عن شيء آخر

وأنا لم أتوصل أبدا إلى الحقيقة ، لأنني والحق يقال لم أفكر في ذلك أبدا في جدية . كيف تكون الملائكة . ففي وقت ماكنت أتخيل الملائكة كائنات شقراء ترتدي قمصانا طويلة زرقاء أو وردية ، وفي وقت آخر كنت أتخيلها بلون السحب ، ونحيلة جدا أشبه بسيقان نبات القمح . ومع ذلك فإن ما أستطيع أن أؤكده هو أني تخيلتها دائما كائنات مختلفة عن أخي ماريو . وهذا الأمر بالتأكيد هو الذي جعلني أفكر في أن خلف كلمات السيد رفائيل قط يتربص ونية شديدة السوء يكون بعدها الوثوب كما هو منتظر من إنسان في مثل خسته .

وقد كانت عملية الدفن بائسة ومملة ، على النحو الذي حدث منذ سنوات سابقة مع أبي ، اذ لم يمش خلف الجنازة إلا عدد قليل من المشيعين ، حوالى خمسة أو ستة أشخاص ، بدون مبالغة وهم : السيد مانويل ، وسانتياجو مساعد القس ، ولولا ،

وثلاث أو أربع نسوة عجائز وأنا ، فى الأمام كان يمشى سانتياجو ، حاملا الصليب ، يطلق صفيرا خفيفا ، ويضرب الأرض برجليه ، وخلفه النعش ، وفى الخلف نجد السيد مانويل بلباسه الابيض المفرود فوق عباءة القسس ، حيث كان يبدو مثل مئزر ، وخلفه كانت تاتى العجائز ، بنواحهن وعويلهن ، حتى لقد كان يبدو لمن يراهن انهن جميعا أمهات ذلك الفقيد الذى كان يودع الأرض

وكانت لولا فى ذلك الحين بمثابة نصف خطيبتي ، وأقول نصف خطيبة فقط ، لانه على الرغم من تبادلنا للنظرات مع بعض الميل ، الا انني لم اجرؤ ابدا ان اقول لها كلمة حب واحدة . فقد كنت احس بخوف ما ان تكون نظرتها لى باحتقار ، ولو انها فى كثير من الاحيان كانت تتعمد ان تقف فى طريقى حتى ابت فى الامر . ولكن الخجل كان هو الذى يفوز على دائما ، فاخذت أؤجل الموضوع ثم أؤجله اكثر واكثر ، حتى استطال اكثر من اللازم ، وكان عمرى فى ذلك الحين ثمانية وعشرين عاما أو ثلاثين ، اما هى فكانت اقل فى السن قليلا من اختى روساريو ، يعنى حوالى واحد وعشرين او اثنين وعشرين عاما ، كانت فارعة القوام ، قمحية اللون ، سوداء الشعر ، ولها عينان فى غاية العمق ، وشدة سواد يحيران عند النظر ، وكانت رفيعة الخصر ممشوقة القد ، وتنضج كما هو معروف من سرعة النمو عند النساء . فقد كانت تجعل الرجل امامها يظن انه امام ام ، ومع ذلك فقبل ان امضى الى الامام ، واخاطر بالقاء هذا الجزء فى عالم النسيان ، اريد ان اقول لك ، حتى اظل موصولا بالحقيقة ، انها فى تلك الايام ، كانت سليمة تماما مثلما ولدت ، وليست لها أية صلة باى انسان وكأنها تلميذة مبتدئة ، وهذا شيء احب ان اؤكد عليه حتى لايأخذ أحد اية فكرة محرفة عنها ، وهو ماسوف تفعله بعد ذلك هى نفسها مع ضميرها ـ والله وحده هو الذى يعرف ذلك حتى النهاية ـ ولكن ماكانت تفعله فى ذلك الزمن ، انا متأكد تماما أنها كانت بعيدة كل البعد عن اية فاحشة ، ومن ثم فانى لن اتردد لحظة واحدة فى ان

اقدم روحي للشيطان اذا اثبت لي عكس ذلك ، كانت تمضي بكثير من القوة والاطمئنان وبكثير من السهولة والخيلاء لدرجة ان الانسان لايمكن ان يتصور أنها مجرد فلاحة فقيرة ، ناهيك عن خصلات شعرها ، المعقودة في ضفيرة واحدة كبيرة تحت الرأس ، وهذا الاحساس كان يتملكني ، عندما مرت السنوات وبدأت أتحكم فيها كزوج . كنت احس برغبة في ملامسة خديها . حيث كان يكمن فيهما كل دافيها من رقة وكل مايضوع منها من عبير . مثل شعاع الشمس أو رائحة الزعتر او قطرات العرق الباردة التي كانت تظهر في عذارها عندما تحس بالاختناق

واذا عدنا الى ماكنا فيه نقول ان عملية الدفن قد تمت بسهولة ، ذلك ان الحفرة كانت جاهزة ، ولم يبق الا أن نضع اخي داخلها ثم نردم عليه بالتراب . وقد أدى السيد مانويل بعض الصلوات باللاتينية ، وركعت النساء ، وعندما انحنت لولا . ظهر ساقاها ، بيضاوان ملفوفان مثل السجق ، فوق الجورب الاسود . واني احس بالخزى مما سوف اقوله ، ولكني ادعو الله ان يعمل على انقاذ روحي لقاء مايكلفني هذا من جهد : في تلك اللحظة أحسست بالسعادة لموت أخي .. فقد كانت ساقا لولا تسطعان مثل الفضة . وقد اخذ الدم يغلي في جبهتي . والقلب بدا وكأنه يريد ان يقفز من صدري .

ولم أر الناس وهم عائدون ، لا السيد مانويل ولا النساء ، كنت مثل المجنون ، عندما بدأت أعود الى الاحساس بالحياة وأنا جالس على الأرض التي لم تكد تسوى فوق جثة ماريو . لماذا بقيت هناك الوقت الذي مر علي ، انهما شيئان لم اتحقق منهما ابدا . وأنا أذكر ان الدم ظل يغلي في صدغي ، وأن القلب كان لديه رغبة في ان يطير ، كانت الشمس تتأهب للغروب ، وهي ترسل اشعتها الاخيرة فوق شجرة السرو البائسة . رفيقتي الوحيدة . كان الجو حارا ، وقد سرت رعشة في جسدي كله ، لم

أكن استطيع الحركة ، كنت مسمرا بالارض وكأنى أنظر الى ذئب .
كانت لولا واقفة بجانبى ، صدرها يرتفع وينخفض عند التنفس

- وأنت أيضا ؟
- كما ترى !
- ماذا تفعلين هنا ؟
- لاشيء .. ، لاشيء ! انا هنا ..

عندئذ وقفت ومددت ذراعي نحوها

- ماذا تفعلين هنا ؟
- لاشيء ! الا ترى ؟ لاشيء !

كانت لولا تنظر الى نظرة تثير الرعب .. وكان صوتها مثل صوت يأتي من العالم الآخر ، رصينا وخافتا كصوت شبح .

- انت مثل اخيك !
- أنا ؟
- انت ! نعم !

....

كانت معركة شرسة ، وكانت وهى ملقاة على الأرض أجمل من أى وقت مضى .. وأخذ صدرها يرتفع وينخفض عند التنفس بأسرع من ذى قبل ، وقد جذبتها من شعرها ودفعتها على الارض . وكانت هى تقاوم ، وتحاول ان تفلت .. فعضضتها بقوة حتى بزغ منها الدم .

....

- هل هذا ماتريده ؟
- نعم !

واخذت لولا تبتسم لى باسنانها المتناسقة وتمسح على رأسى بيديها .

- لست مثل اخيك ..!

كانت الكلمات خارجة من شفتيها تحمل بعض الرنين .

وكانت الأرض رخوة ، وهذا ماأتذكره جيدا . وعلى التراب نصف دستة من شقائق النعمان ، من اجل اخى المتوفى . ست نقط من الدم ..

- لست مثل اخيك .. !
- هل تحبيننى ؟
- نعم !

وقد ارادت العناية الالهية ان تمر خمسة عشر يوما منذ ان كتبت ماهو مذكور من قبل ، وكنت خلال هذه الايام مشغولا فى تحقيقات وزيارات للدفاع من جهة ، وفى الانتقال الى هذا المكان الجديد من جهة اخرى ، فلم تتوفر لحظة واحدة خالية كي اتناول القلم والآن بعد اعادة قراءة هذه الحزمة ، من الاوراق ، وهى ليست كبيرة بعد ، اجد الافكار المتباينة تختلط فى رأسى ، بكثير من الاندفاع وكثير من الدوار ، لدرجة انى مع كثرة تفكيرى ، لم اتوصل بعد الى اية رسالة يمكن ان اتوقف عندها . نوازل كثيرة ، كما رايت هى التى اقصها وأحس ان قواى سوف تخور عندما اواجه مابقى لى حتى الآن ، فمازلت ذلك البائس . وانى لاصاب بالرعب عندما ارى كم صارت الذاكرة دقيقة جدا معى . فى هذه اللحظات التى ننقل فيها كل احداث حياتى - وخاصة انه لايمكن العودة الى الوراء - مكتوبة فى هذه الاوراق بنفس الوضوح الذى يمكن ان تنقش به على لوح من الحجر . شىء مضحك - وحزين ايضا . والله خير العالمين ! - ان اتوقف لأتأمل لو ان جهد التذكر الذى افعله هذه الايام حدث لى فى سنوات سابقة ، فلعلى . فى هذه الساعات . بدلا من ممارستى للكتابة فى زنزانة ، كنت اتشمس فى الحوش ، او اصطاد الاسماك فى القناة ، او اجرى خلف الارانب فى الجبل ، ولعلى كنت افعل شيئا اخر مختلفا عن هذه الاشياء التى تفعلها - بدون تثبت - الغالبية العظمى من الناس ، ولعلى كنت حرا ، مثلما هم احرار - دون ان يتثبتوا ايضا - الغالبية العظمى من الناس ، ولعله كانت امامى سنوات من الحياة ، لايعلمها الا الله ، مثلما عند الغالبية العظمى

من الناس ، دون ان يدركوا ان هذه السنوات يمكن ان تنقضى ببطء .

والمكان الذى نقلونى اليه افضل ، فعبر النافذة ترى حديقة صغيرة منظمة بعناية ومتأنقة وكأنها صالة صغيرة ، وخلف الحديقة يمتد السهل حتى الهضبة . وهذه الهضبة لونها كستنائى مثل جلد البشر . وتمر منها - فى بعض الاحيان - قوافل البغال التى تسير نحو البرتغال . والحمير الخبابة التى تمضى نحو الأكواخ . والنساء والأطفال الذين يذهبون فقط إلى الدير .

وأنا أتنفس الهواء ، الذى يدخل ويخرج من الزنزانة لأنه لا يحمل معه عند خروجه شيئا ، وهو نفس الهواء الذى يمكن أن يتنفسه غدا أو فى أى يوم صاحب البغال المار ... وأنا أرى الفراشة ذات الألوان الكثيرة تطير حائمة فوق نباتات عباد الشمس ، وتدخل الزنزانة لتدور دورتين وتخرج . لأنها لن تحمل معها شيئا . وربما ينتهى بها الأمر أن تقف أحيانا على مخدة المدير ... وأنا أتناول بالقبعة الفأر الذى كان يأكل ما يتخلف عنى ، وأنظر إليه ، ثم أتركه - لأنه لا يحمل معه شيئا - وأرى كيف يختبىء متسللا من ممر دقيق جدا حتى يحتمى فى جحره . وهو الجحر الذى يخرج منه لكى يأكل أكله الغريب . الذى يكون نزيل الزنزانة لفترة محددة ، لابد أن يخرج منها إلى الجحيم فى معظم الأحيان ...

ولعلك لن تصدقنى إذا قلت لك إن مشاعر الحزن والضيق فى هذه اللحظات تغمرنى ، حتى لأؤكد لك أن الندم الذى أحس به ليس أقل من الندم الذى يصدر عن قديس : ولعلك لن تصدقنى ، لأن المعلومات التى تعرفها عنى شديدة السوء ، وأن رأيك بشأنى قد تحدد على هذا النحو ، ولكن مع ذلك ... وأنا أقول لك هذا ، ربما لمجرد القول لا أكثر ولا أقل ، وربما لمجرد أنى لم أزح من دماغى فكرة طرأت عليه وأنا واثق أنك سوف تفهم ما أقول وتصدق مالم أقسم عليه بشرفى لأن القسم فى هذه المسألة لن يكون له فائدة تذكر ... إن المرارة التى تبلغ حلقى تبدو وكأن

القلب قد أصبح يُصنع فيه عصير الصبر بدلا من الدم : إنها تصعد وتهبط فى صدرى ، تاركة لى طعما حامضا فى سقف الحلق ، ثم إنها تبلل لسانى بأريجها ، وتجفف أعماقى بهوائها الثقيل السيىء الذى يشبه هواء مشكاة .

لقد توقفت فترة عن الكتابة : ربما لمدة عشرين دقيقة ، وربما لمدة ساعة ، وربما ساعتين ... وعلى الطريق كان بعض الأشخاص يعبرون ، وكم كنت أراهم جيدا من نافذتى !. ولعلهم لم يكونوا يفكرون أنى أنظر إليهم ، وهم يمضون بشكل طبيعى . كانوا عبارة عن رجلين ، وامرأة ، وطفل : وبدا أنهم سعداء وهم يمشون على الطريق . والرجلان كل منهما يناهز عمره الثلاثين عاما : أما المرأة فأقل قليلا : والطفل لا يعدو ست سنوات . كان يمشى غير منتعل ، ويضرب فى الأرض مثل الماعز حول الأعشاب . ويرتدى قميصا صغيرا يترك بطنه للهواء . كان يقفز خطوات إلى الأمام ثم يتوقف ، ويرمى أى طائر يعبر بحجر ... ولم يكن يشبه فى شىء أخى ماريو . لكن مع ذلك كم ذكرنى به !.

ولابد أن المرأة كانت هى الأم ، وكان لونها قمحيا مثل كل النساء ، والفرح يغمر جسمها كله حتى أن المرء ليحس بالسعادة وهو ينظر إليها . كانت أما مختلفة تماما ، ومع ذلك ، لماذا كانت تذكرنى كثيرا بأمى ؟

سوف تعذرنى ، ولكنى لا أستطيع أن أواصل . ولا ينقصنى إلا القليل حتى أنفجر فى البكاء .... وأنت تعرف جيدا مثلى ، أن الرجل الحقيقى لا يمكن أن يترك لنفسه العنان كى ينفجر فى البكاء مثل أية امرأة .

سوف أستمر فى حكايتى : وهى حزينة ، أعرف ذلك جيدا ، ولكن يبدو لى أن هناك ماهو أشد منها حزنا وهى هذه الفلسفات التى ليس مؤهلا لها قلبى : هذه الآلة التى تصنع الدم ويمكن لأى طعنة أن تريقه ...

- ٧ -

وقد استمرت علاقتى مع لولا على الخط الذى لن يخفى عليك وبمرور الوقت ، ولم تكن قد مضت حتى ذلك الحين خمس شهور على دفن أخى الميت وجدت نفسى أفاجأ - وتصور كيف تكون الأشياء - بخبر . كان ينبغى ألا يكون مفاجئا بالنسبة لى .

كان ذلك فى يوم القديس كارلوس ، فى شهر نوفمبر . وكنت قد توجهت إلى بيت لولا مثلما ظللت أفعل كل الأيام منذ شهور سابقة : وقد نهضت أمها كالعادة وغادرت البيت . أما خطيبتى فقد وجدتها شاحبة بعض الشىء ، وفيها غرابة . بعد ذلك أدركت المسألة : بدت وكأنها كانت تبكى ، من أسى عميق ألمّ بها . والحديث - الذى لم يكن أبدا يدور بيننا بكثير من الخجل - أصاب صوتنا بشىء من الرعب فى ذلك اليوم . مثل طيور المهارشة ، أو مثل طيور الحجل عندما يغنى السائر . وكلما أردت أن أتكلم كان كلامى يصطدم بحنجرتى . فتصبح جافة مثل جدار .

- إذن لا تتكلمى إذا كنت لا تريدين .

- بلى . أريد !

- إذن تكلمى . هل أنا أمنعك ؟

- ياباسكوال ؟

- ماذا ؟

- هل تعرف شيئا ؟

- كلا !

- ولا تتصوره ؟

- كلا

والآن أجدنى أضحك وأنا أتأمل كيف تأخرت وقتا طويلا حتى

وقعت .

- باسكوال !

- ماذا ؟

- أنا حامل !

في البداية لم أنتبه لهذه الكلمة ، وبقيت مثل المسحوق ، فقد كنت ذا طبع يأنف من الجديد : ذلك أنى لم أفكر أبدا فى أن هذا الشيء الذى كانوا يكلموننى عنه ، هذا الشيء الذى هو طبيعى جدا يمكن أن يحدث . لا أدرى فى ماذا كنت أفكر .

كان الدم يغلى فى أذنى ، حتى صارتا حمراوين مثل جزوتين متقدتين : واشتدت الحرقة فى عينى وكأن فيهما صابون ...

ويبدو أنه قد مرت عشر دقائق على الأقل فى صمت كصمت القبور . وبدا قلبى كأنما يصعد نحو صدغى ، بضرباته المتقطعة مثل ضربات الساعة : وقد تأخرت برهة قبل أن ألاحظ ذلك .

أما تنفس لولا فقد بدا وكأنه يمر من خلال مزمار .

- تقولين إنك حامل ؟

- نعم !

وأجهشت لولا بالبكاء ، أما أنا فلم أعرف كيف أواسيها .

- لا تكونى غبية ، البعض يموتون ... وآخرون يولدون ...

ولعل الله يخفف عنى بعض العذاب فى جهنم بسبب ما أحسست به من ليونة فى ذلك المساء .

- وماذا فى هذا ؟ لقد كانت أمك كذلك قبل أن تضعك ... وأمى أيضا ...

كنت أبذل مجهودات خارقة لكى أقول شيئا . ولاحظت بعض التغيير على لولا : وبدت وكأنها انقلبت رأسا على عقب .

- هذا هو ما يحدث دائما ، شيء معلوم ، ولا داعى لأن تضايقى نفسك !

كنت أنظر تجاه بطن لولا : ولم يكن يلاحظ عليها شيء . كانت جميلة مثلما يحدث لها فى أحيان قليلة ، بلونها المفقود ،

وخصلات الشعر المنكوشة .

اقتربت منها ، وقبلتها فى خدها : كانت باردة مثل الميتة . وقد تركتني أقبلها وابتسامة على فمها تشبه ابتسامة الشهيد فى الأزمنة الماضية .

ـ هل أنت سعيدة ؟

ـ نعم ! سعيدة جدا !

هكذا ردت لولا دون أن تبتسم .

ـ هل تحبنى ...، هكذا ؟

ـ نعم ، يالولا ....، هكذا .

كانت هذه هى الحقيقة . فقد كنت فى تلك اللحظات أحبها هكذا : فتاة ، وفي بطنها ابني : ابنى أنا ، حيث كنت ، حينئذ ، أحلم بأن أربيه وأن أجعل منه رجلا يعرف من أين تؤكل الكتف .

ـ سوف نتزوج يالولا : يجب أن نسوى الأوراق . هذا الموضوع لا يمكن أن يبقى هكذا .

ـ كلا .

وبدا صوت لولا كأنها تتنفس الصعداء .

ـ وأريد أن أبين لأمك أنى أعرف كيف أفى بكلمتى بصفتى رجلا .

ـ هى تعرف ذلك ...

ـ بل إنها لا تعرف !

وعندما بدا لى أن أمشى كان الليل قد أرخى سدوله .

ـ استدع أمك .

ـ أمى ؟

ـ نعم

ـ لماذا ؟

ـ حتى أقول لها ذلك .

ـ إن لديها علما به

ـ ربما ...، ولكنى أريد أن أقوله لها بنفسى !

وقد نهضت لولا ـ كم هى طويلة !ـ ثم خرجت .
ـ وعندما عبرت عتبة المطبخ أعجبتنى كما لم تعجبنى من قبل . ثم دخلت الأم بعد برهة :
ـ ماذا تريد ؟
ـ ها أنت ترين .
ـ هل رأيت كيف تركتها ؟
ـ تركتها بخير .
ـ بخير ؟
ـ نعم ، بخير ! أم أنها ليست كبيرة ؟
ثم صمتت الأم : وأنا لم أتصور أبدا أن أراها وديعة هكذا .
ـ كنت أود أن أتكلم معك .
ـ عن ماذا ؟
ـ عن ابنتك . سوف أتزوجها .
ـ هذا أقل شيء تفعله . هل أنت جاهز من كله ؟
ـ نعم أنا جاهز .
ـ وهل فكرت فى ذلك جيدا ؟
ـ نعم ، فكرت جيدا .
ـ فى هذا الوقت القليل ؟
ـ بل إن الوقت قد زاد .
ـ إذن انتظر ، سوف أناديها .
وخرجت العجوز ، ثم تأخرت بعض الوقت حتى عادت ؛ ولعلهما كانتا تتجادلان . وعندما عادت كانت تمسك لولا من يديها .
ـ انظرى ، إنه يريد أن يتزوجك . هل تريدين أن تتزوجى ؟
ـ نعم .
ـ حسنا ، حسنا ... باسكوال فتى طيب ، وأنا كنت أعرف ماذا سيفعل ... هيا ، فليقبل كل منكما الآخر !
ـ ها قد فعلنا .

- إذن فلتكن أخرى . هيا ، أود أن أراكما .

اقتربت من الفتاة وقبلتها : قبلتها بشدة ، بكل قوتى ، وضممتها إلى بقوة دون أن أهتم بحضور الأم . ومع ذلك فإن تلك القبلة المصرح بها لم تشدنى إلا قليلا ، أقل بكثير من القبلات الأولى فى القرافة اللاتى بدت بعيدة جدا .

- هل يمكن أن أبقى ؟
- نعم ، فلتبق .
- كلا ، ياباسكوال ، لا تبق : لم يحن بعد موعد بقائك .
- نعم ، يابنتى ، نعم ، فليبق . ألن يكون زوجك ؟

وهكذات بقيت وقضيت الليل معها .

وفى اليوم التالى ، فى ساعة مبكرة ، توجهت إلى الكنيسة ودخلت خزانة الأشياء المقدسة . كان هناك السيد مانويل يستعد لإقامة القداس ، هذا القداس الذى يقيمه من أجل السيد خيسوس ، ومولاته ، واثنتين أو ثلاث أخريات من العجائز . وعندما رآنى أتقدم نحوه بدا مندهشا .

- وأنت هنا ؟!
- ها أنت ترى ياسيد مانويل . جئت لأتحدث معك .
- حديثا طويلا ؟
- نعم ، ياسيدى .
- يمكن أن تنتظر حتى أنتهى من القداس ؟
- نعم ، ياسيدى ، فلست على عجلة من أمرى .
- إذن ، انتظرنى .

وقد فتح السيد مانويل باب الخزانة ، وأشار لى إلى مقعد من الكنيسة ، مقعد مثل كل مقاعد الكنائس ، من الخشب غير المدهون ، صلب ، وبارد مثل الحجارة ، لكن يمكن للمرء أن يقضى به لحظات طيبة فى بعض الأحيان .

- اجلس هناك . وعندما ترى السيد خيسوس يركع . اركع معه ؛ وعندما ترى السيد خيسوس ينهض ، انهض معه : وعندما ترى السيد خيسوس يجلس اجلس معه أيضا .

- نعم ، ياسيدى

وقد استمر القداس ، كالعادة ، حوالى نصف ساعة ، ولكن هذه النصف ساعة انقضت بالنسبة لى فى لحظة .

وعندما انتهى عدت إلى الخزانة ، وهناك كان السيد مانويل يخلع هدومه .

- ماذا تريد ؟

- أنت خير العارفين ... أريد أن أتزوج .

- هذا شيء طيب . يابنى . هذا شيء طيب : من أجل هذا خلق الله الرجال والنساء ، حتى يستمر النوع الإنسانى .

- نعم . ياسيدى .

- حسنا ، حسنا ، وممن ؟ من لولا ؟

- نعم ياسيدى

- وهل فكرت فى ذلك طويلا ؟

- كلا ، ياسيدى ، بالأمس ...

- بالأمس ، فقط ؟

- فقط . فبالأمس أخبرتنى هى بما كان

- هل كان هناك شيء ؟

- نعم .

- حامل ؟

- نعم : ياسيدى . حامل .

- إذن نعم . يابنى : الأفضل هو أن تتزوجا . والله سوف يغفر لكما . ثم إنكما أمام الناس ، سوف تكسبان احترامهم . فمولد طفل خارج الزواج ماهو إلا خطيئة ووصمة عار . أما الإبن المولود من أبوين متزوجين على الطريقة المسيحية فهو بركة من الله . سوف أسوى لك الأوراق . هل توجد بينكما قرابة ؟

- كلا ، ياسيدى

- أفضل . عد خلال خمسة عشر يوما من الآن : وسوف تجد كل شيء معداً .

ـ نعم ، ياسيدى .
ـ إلى أين أنت ذاهب الآن ؟
ـ ها انت ترى ، إلى العمل !
ـ ألا تريد أن تعترف أولا ؟
ـ نعم ...

وقد اعترفت ، وأصبحت رقيقا ولينا وكأنما وضعونى فى حمام به ماء ساخن .

وبعد أكثر من شهر بقليل ، في ١٢ ديسمبر ، يوم عذراء جوادالوبي ، الذي وافق في ذلك العام يوم الأربعاء ، وبعد أن وفينا بكل متطلبات قانون الكنيسة ، أعلنا زواجنا ، لولا وأنا .

كنت أحضر مشغولا ، مهموما ، كأنما أخشى الخطوة التي سوف أخطوها . فالزواج أمر في غاية الجدية ، عجبا !ـ وقد مررت بإحدى النوبات وخور ، حتى أني ، وأؤكد لك ، كدت أعود القهقري ، والقي بكل شيء أدراج الرياح ، وهو شيء وإن لم أفعله فذلك كان بسبب التفكير في أن الفضيحة يمكن أن تكون كبيرة ، ثم إني ، في الحقيقة ، لم أكن سأتخلص من كثير من الخوف ، والأفضل أن أظل هادئا ، وأترك الأحداث تمضي وشأنها : لعل الخراف تفكر بنفس هذه الطريقة عندما تجد نفسها محمولة إلى المذبح ... وعن نفسي أستطيع أن أقول إنه قد جاءت لحظة أعتقدت فيها أني سوف أجن . ولا أدرى هل هي حاسة الشم التي كانت تحذرني من القارعة التي تنتظرني . والأسوأ من ذلك هو أن هذه الحاسة نفسها لم تكن ستؤكد لي شيئا من هذا القبيل لو أني بقيت أعزب .

وبما أني صرفت في حفل الزواج كل ما كان لدى من مدخرات صغيرة ـ ذلك أن ثمة فرقا بين أن تتزوج على غير الإرادة وبين أن تحاول أن تبقى كما بقيت ـ، فقد جاء الحفل ، وإن كانت تنقصه العظمة ، إلا أنه على الأقل كان يشتمل على جانب من الأبهة تليق بمن هم على شاكلتنا . ففى الكنيسة أمرت بوضع بعض شقائق النعمان ، وعدد من أصص الزهور ، وصار منظر الكنيسة ممتعا وجذابا ، ربما فيما يتعلق على الأقل بعدم الإحساس بالبرودة

الشديدة على خشب المقاعد وبلاطات الأرضية . كان لون ملابسها أسود ، مع ثوب من أفضل أنواع الكتان مضبوط بدقة عليها ، وخمار كله من الدنتلا أهدته لها إحدى قريباتها ، وفي يدها بعض سيقان من الأزهار ، وكانت تتقمص دورها في خفة ورشاقة ، حتى بدت مثل ملكة : أما أنا فكنت أرتدى بدلة زرقاء حسنة المنظر فيها خط أحمر ، وقد وصلت حتى بطليوس لكى أشتريها ، مع قبعة ذات حافة سوداء كنت أضعها على رأسى فى ذلك اليوم لأول مرة . ومنديل من الحرير كنا عروسين جميلين ، أؤكد ذلك . بملابسنا ومظهرنا ! أى ، كانت أوقاتا مازالت فيها لحظات يبدو المرء خلالها وكأنه يتنسم السعادة ، لكن أى بون شاسع بيني وبينها الآن !

وقد شهد على العقد السيد الشاب سباستيان ، الذى يعمل مع السيد رايموند الصيدلى ، والسيدة أورورا ، أخت السيد مانويل القسيس الذى طرح علينا البركة وصلاة قصيرة فى النهاية ، وبذلك تضاعف وقت الحفل ثلاث مرات . ولكنى تحملت كل هذا لا لشيء - والله أعلم بالصواب - إلا لأنى اعتقدت أن ذلك واجب : لكنه كان ثقيلا إلى أقصى حد . وقد حدثنا مرة أخرى عن خلود النوع الإنسانى وحدثنا أيضا عن البابا ليون الثالث عشر ، وقال لنا أشياء عن القديس بولس والعبيد ... واضح أن الرجل حضر وقد أعد الخطبة إعدادا جيدا !

وعندما انتهى دور الكنيسة - وهو شيء لم أتصور أبدا أنه سوف يحدث - وصلنا جميعا ، وكأننا فى لجنة ، إلى بيتى ، حيث كنا قد عملنا استعداداتنا ، بأفضل ما يملك الناس من إرادة فى هذا العالم ، للأكل والشرب ، لكل من حضروا ولضعفهم إن زاد عدد المدعوين ، وإن يكن ذلك قد تم بكل الراحة المطلوبة . فبالنسبة للنساء كانت هناك شيكولاتة مع لقمة القاضى ، وتورته من اللوز ، وبسكويت ، وخبز من التين ، وبالنسبة للرجال كان هناك نبيذ أبيض وسجق من لحم الخزير ، وممبار ، وزيتون ، وعلب سردين ... وأنا أعرف أن بعض الناس فى القرية انتقدونى

لأني لم أقدم طعاما على الغداء : يروحوا في داهية . لكن الذى أستطيع أن أؤكده لك هو أن تلبية رغبة هؤلاء الناس لم تكن ستكلفني ما لا أطيقه ، ولكني ، مع هذا فضلت ألا أفعل ذلك ، لأني كنت سأظل مربوطا معهم لأطول مدة ، بينما كنت أحس برغبة قوية في الذهاب مع زوجتي . وإن ضميرى مستريح تماما لأنى أديت واجبى - وبشكل جيد - وهذا يكفينى : أما فيما يتعلق بالهمسات .. فمن الأفضل ألا نلقي لها بالا !

وبعد أن قدمت التحية للضيوف ، وبمجرد أن حانت لى الفرصة ، أخذت زوجتي ، وأجلستها على كفل الفرسة ، التى أسرجتها برحل السيد بيثينتى ، وكان قد أعارنى إياه لهذا الغرض ، وخطوة خطوة ، وكأنى كنت أخشى أن أراها منكفئة على الأرض ، سلكت الطريق واقتربت من مدينة ماردة ، حيث قضينا هناك ثلاثة أيام لعلها أكثر الأيام سعادة فى حياتى . وفى الطريق توقفنا ست مرات تقريبا كى نأخذ حظا من الانتعاش ، والآن أتذكر بدهشة بل أتردد كثيرا عندما أتوقف لأفكر فى تلك اللحظات الخاطفة عندما عنّ لنا نحن الاثنين أن نقطف بعض زهور الأقحوان لكى يضعها كل منا للآخر ، على الرأس . إن المتزوجين حديثا يبدون وكأنما قد عاد لهم فجأة كل سحر الطفولة

وعندما دخلنا المدينة ، فى مشية موقعة ومنتظمة ، وعبرنا الجسر الرومانى ، لاح لنا فأل سيىء حين أصيبت الفرسة بالفزع - ومن يدرى فربما كان ذلك من رؤيتها للنهر -، وكان ثمة امرأة عجوز بائسة تمر من هناك كان من نصيبها رفسة تركتها نصف جريحة . وعلى وشك أن تتدحرج برأسها فى نهر وادى يانة . وقد ترجلت بسرعة كى أنقذها ، لأنك لا يمكن أن تكون من أرومة طيبة إذا لم تسارع إلى غوث الملهوف ، ولكن بما أن العجوز أعطتنى إحساسا بأن ما كان عندها هو مجرد رائحة كريهة ، فقد نفحتها ريالا - لماذا لا أقول ذلك - وربت مرتين على كتفيها ثم ذهبت لأنضم إلى لولا . وكانت هذه ، أي لولا ، تضحك

وضحكتها ، وينبغى أن تصدقنى ، سببت لى الكثير من الألم : ولا أدرى هل كان ذلك هاجسا ، أو شيئا هكذا يشبه الشعور الداخلى بما سوف يحدث لها . ليس من حسن الخلق أن نضحك على مصائب الآخرين ، قال ذلك إنسان كان سيىء الحظ على امتداد حياته : إن الله يعاقب من غير عصا ومن غير حجارة ، والمثل معروف ، من يقتل بالحديد ... ومن جهة أخرى ، وإن لم يكن من أجل هذا ، فإن الكائن البشرى لم يكن أبدا شيئا غير ذلك .

وقد نزلنا فى خان الميرلو ، فى حجرة كبيرة بالمدخل ، على اليمين ، وخلال اليومين الأولين ، ونحن فى حالة من الهيام على نحو ما كنا ، لم ننزل إلى الشارع ولا مرة واحدة . كنا مستريحين فى الحجرة ؛ فقد كانت واسعة ، ذات سقف مرتفع ، مسنود بروافد صلبة من خشب القسطل ، وبها أرضية نظيفة من البلاط ، وأثاث مريح ومتعدد كان المرء يحس بمتعة حقيقية وهو يستخدمه . إن ذكرى هذه الغرفة ظلت تصحبنى على امتداد حياتى مثل صديق وفىّ ، والسرير هو أفضل سرير رأيته فى حياتى ، ورأسه كلها من شجر الجوز المشغول ، وعليه أربع مراتب من الصوف النظيف ... كم كنت أستريح فيه جيدا ! كان يبدو وكأنه سرير الملك نفسه ! كان هناك أيضا صوان ، طويل وعريض مثل قابلة ، له أربعة أدراج عميقة ، بها مقابض مذهبة ، ودولاب يصل إلى السقف ، به مرآة كبيرة من أفضل المرايات ، وزوج من الشمعدان الطويل ـ من نفس الخشب ـ كل منها فى جانب حتى يضىء الصورة جيدا . بل إن إبريق الغسيل ـ الذى عادة يكون أسوأ شىء ـ كان جميل المنظر فى تلك الحجرة : ذلك أن أرجله المقوَّسة الرقيقة من الخيرزان ، وجفينته المصنوعة من الفخار الأبيض ، والعصافير الصغيرة المنقوشة على حافته ، كل هذا كان يضفى عليه نوعا من الملاحة تجعله محببا . وعلى الجدران كانت هناك صورة ملونة ، كبيرة ، وبها أربعة ألوان ، فوق السرير ، تمثل المسيح فى استشهاده ؛ وكان بالحجرة دف عليه رسم بالألوان يمثل صورة الخير الدا الإشبيلية ، له إطار من

ثمرة القطلب مجسد وأصفر اللون ، وزوجان من الصناجات فى كلا الجانبين ، وعليه رسم للسيرك الرومانى ، وقد وصفته دائما بأنه ذو قيمة كبيرة نظرا للتشابه الكبير الذى كنت أجده فيه . وكان هناك أيضا ساعة موضوعة فوق الصوان ، مع دائرة صغيرة تصور الكرة الأرضية ، يحملها على الأعناق تمثال لرجل عار ، وجرتان من جرار تالافيرا ، عليهما رسوم باللون الأزرق ، قديمتان بعض الشىء لكنهما مازالتا تحتفظان حتى الآن بهذا البريق الذى يجعل منهما شيئا يسر النظر . أما المقاعد ، حوالى ستة اثنان منها لها أذرع ، فكانت طويلة من الظهر ، منجدة بأشياء لينة تريح العجز (معذرة) : صلبة الأرجل ، ومريحة جدا لدرجة أنى ازددت شوقا إليها عندما عدت إلى البيت ، فما بالك بهذه اللحظة وأنا محبوس هنا . وحتى الآن مازلت أتذكرها بالرغم من مرور السنوات !

وقد قضيت أنا وزوجتى الساعات مستمتعين بالراحة التى أتيحت لنا ، وكما قلت لك ، فى البداية ، إننا لم نكن نخرج إلى الشارع . فماذا كان يهمنا ما يحدث فيه إذا كنا هنا فى الداخل نمتلك ما لا يمكن أن يقدمه لما أحد فى كل أنحاء المدينة .

لكن أسوأ شىء هو الحظ السيىء ، صدقنى . إن سعادة هذين اليومين بدت لى غريبة ، لأنها كانت تبدو سعادة كاملة .

ففى اليوم الثالث ، السبت ، علمنا أن أقرباء العجوز التى أصابتها الفرسة تقدموا ببلاغ للحرس المدنى . ولم نشعر إلا وشرذمة من الصبيان جاءوا يطرقون الباب بقوة عندما عرفوا أن رجال الحرس المدنى قادمين ، وقد أحدثوا جلبة شديدة ظلت بعد ذلك شهرا كاملا تطن فى أذنينا . أية قسوة ملعونة تبعثها رائحة المقبوض عليهم فى الأطفال ؟ أخذوا ينظرون إلينا بعيونهم الملتهبة وكأننا دابتان غريبتان ، وعلى شفاههم ابتسامات ماكرة ، وكأنهم ينظرون إلى نعجة يضحون بها فى المذبح ـ هذه النعجة التى تبتل النعال من دمها الساخن ـ أو كأنهم ينظرون

إلى كلب داست عليه عربة مارة ـ هذا الكلب الذى يجسونه بعصاة ليروا هل مازالت فيه حياة ـ، أو كأنهم ينظرون إلى خمس قطط حديثة الولادة تغرق فى حوض ، هذه القطط الخمس التى يقذفونها بالحجارة ، هذه القطط الخمس التى يستخرجونها من وقت لآخر كى يلعبوا بها ، ولكى يطيلوا لها أمد الحياة قليلا ـ أى حب سيىء هذا ! ـ، ولكى يحولوا دون أن تكون معاناتها سريعة جدا .. فى البداية ضايقنى كثيرا وصول رجال الحرس المدنى ، وبالرغم من أنى كنت أبذل جهودا كى أبدو رابط الجأش ، إلا أن الارتباك الذى حدث لى فى تلك اللحظة لم يسمح لى بإظهار ذلك . وكان يصحب رجال الحرس المدنى شاب عمره حوالى خمسة وعشرين عاما ، حفيد العجوز ، نحيل ومعجب بنفسه مثلما يحدث فى هذه السن عادة ، وكانت هذه هى نقطة إنقاذى . ذلك لأنه لا ينفع مع الناس ، كما تعرف ، إلا أن تستخدم الكلمة و"تشخشخ" الجيب ، فما إن ناديته بـ "بافتى" ووضعت فى يده ست بيزيتات حتى انطلق مثل الشرارة بادى السعادة مثل الصناجات ، وهو يدعو الله ـ وأنا متأكد من ذلك ـ أن يرى فى حياته ، مرات كثيرة ، جدته ساقطة بين أرجل الأفراس . أما رجل الحرس المدنى ، الذى أدرك أن الطرف الذى يهمه الأمر احتكم إلى العقل ، فقد مرر إصبعه على شاربه ، وتنحنح ، وحدثنى عن خطورة الانهماز ، لكن الأساس فى كل هذا هو أنه انسحب دون أن يزعجنى أكثر من ذلك .

أما لولا فكانت تبدو منهكة من الرعب الذى سببته لها هذه الزيارة . ولكن بما أنها فى الحقيقة لم تكن امرأة جبانة ، وإن كانت تفزع بسرعة . فقد زايلها الكدر فى غضون لحظات قليلة ، ثم عاد اللون إلى خدَّيها ، والبريق إلى نظرتها ، والابتسامة إلى شفتيها ، حتى صارت فى الحال فى غاية من الجمال وحسن المنظر كما هى دائما .

فى تلك اللحظة ـ وأنا أتذكرها جيدا ـ لاحظت لأول مرة شيئا غريبا فى بطنها ، ولم ألبث عندما رأيتها هكذا أن أحسست بضيق

فى قلبى ، وإن كان هذا الإحساس ـ وسط كل هذا الضيق ـ قد أدى إلى تهدئة ضميرى ، ذلك لأنى كنت مشغولا جدا فى ذلك الحين لأنى لم أحس به ، أى بضميرى ، يخفق إزاء فكرة الابن الأول . ولم يكن يظهر عليها من أعراض الحمل إلا القليل ، لدرجة أننى لو لم يكن لدى علم بذلك ، ما كنت قد توصلت أبدا إلى إدراك هذه المسألة .

وقد ابتعنا من ماردة بعض الأشياء من أجل البيت ، ولكن بما أن النقود التى كنا نحملها لم تكن كثيرة ، ثم إنها نقصت كثيرا بالست بيزيتات التى أعطيتها لحفيد العجوز ، فقد قررت أن نعود إلى القرية لأنه لم يبد لى من شيم الرجال الحذرين أن يستنفدوا كل مالديهم من نقود حتى آخر مليم . عدت أسرج الفرسة ، وأعدها للركوب بوضع البرذعة والركاب اللذين أخذتهما من السيد بيثينتى . وألف اللحاف على الجزء الأمامى ، حتى نعود ـ وزوجتى على الكفل مثلما جئنا ـ من طريق تورى ميخيا . وبما أن بيتى كان ، كما تعرف ، فى طريق ألمندراليخو ، وبما أننا كنا قادمين من ماردة ، اضطررنا ، لكى نقترب من هذا الطريق ، أن نعبر صفا كاملا من البيوت ، بصورة جعلت كل الجيران ، لأننا كنا فى لحظة الغروب ، يروننا ونحن قادمان ـ فى فخار ـ ويظهرون لنا حبهم ، الذى كان موجودا فى ذلك الحين ، ويستقبلوننا استقبالا طيبا . وقد تنحيت جانبا ، مطوحا برأسى حتى لا تجرح لولا من ركلة ، حيث تكأكأ علىَّ زملاء العزوبة والعمل ، فذهبت معهم ، شبه محمول على الأعناق ، حتى حانة مارتينيث الديك ، حيث دخلنا فى صخب نغنى ، وحيث استقبلنى صاحب الحانة بالأحضان حتى أحسست بعد قليل بالدوار من القوة التى أخذنى بها ورائحة النبيذ الأبيض التى كانت تخرج من فيه . أما لولا فقد قبلتها على خدها وأرسلتها إلى البيت حتى تحيى الصديقات وتنتظرنى ، ومن ثم مشت ، مثل فارسة على الفرسة الجميلة ، فارعة الطول وشامخة مثل أميرة ، وليس لديها أى علم بأن الحيوان سوف يكون سبب أول مصيبة .

وبما أن الحانة كان بها جيتار ، وكثير من النبيذ ، ومزاج طيب كاف ، فقد صرنا جميعا متألقين وفرحين ، وأسلمنا أنفسنا إلى ما نحن فيه ، غير عابئين بما يدور في الخارج ، وهكذا مر علينا الوقت دون أن نحس به ونحن بين الغناء والشراب . أما زكريا ، الذى يعمل مع السيد خوليان ، فقد انطلقت عقيرته بالغناء . وكان من الممتع جدا أن تسمعه بصوته الرقيق جدا مثل صوت الكنارى . وبينما هو يغنى كان الآخرون - فى حالة الهدوء - يلتزمون الصمت وهم يستمعون مذهولين ، ولكن عندما كنا ننطلق فى الصخب ، بسبب النبيذ والحوار الدائر ، فقد كنا نغنى فى جماعة ، وبالرغم من أن أصواتنا لم تكن تحمل كثيرا من الرقة ، لكن بما أننا كنا نقول أشياء مسلية ، فقد صار كل شىء مُغتفرا لنا .

إنه لأمر يثير الأسى أن لحظات السعادة عند الناس لا يُعرف أبدا إلى أين سوف تمضى بنا ، ولو أننا عرفنا ذلك فلاشك أننا سوف نعرف كيف نتجنب هذه المصيبة أو تلك : أقول ذلك لأن السهرة فى بيت الديك انتهت مثل مسبحة الفجر بشىء لا يعرف أى منا كيف يوقفه في وقته . كانت المسألة سهلة جدا ، سهلة كما تكون دائما كل الأشياء التى تأتى مع ذلك لكى تعكر علينا صفو الحياة .

فالسمك يموت من الفم ، هكذا يقولون ، ويقولون أيضا إن من يتكلم كثيرا يغلط كثيرا ، وأن الفم المقفول لا يدخله الذباب ، وإذا كنت أنا أعتقد فى مثل هذه الأمثال فلابد أن فيها ما يستوجب هذا الاعتقاد ، لأن زكريا لو كان قد ظل صامتا كما أمر الله ، ولم يحشر نفسه في شئون الغير عندئذ كنا سنتجنب كارثة صغيرة ، أدت إلى استنفار الجيران بما أصابه من جروح ثلاثة . إن النبيذ ليس أبدا مما ينصح به .

فزكريا ، فى وسط اللهو ولكى يظهر بمظهر العارف بالنكات ، حكى لنا حكاية عما حدث ، أو ألم ، بشخص حرامى ، وقد كانت

لدى الجرأة على أن أقسم فى تلك اللحظة ـ ومازلت أقسم حتى الآن ـ أنه كان يقصدنى بهذا الكلام : وأنا لم أكن أبدا حساسا ، هذا صحيح ، ولكن هناك أشياء مباشرة ـ أو يعتقد المرء أنها مباشرة ـ ولا يمكن أبدا أن تؤخذ على أنها بعيدة عن التلميح ، أو يستمر الإنسان فيما هو فيه ولا ينهض متأثرا .

وقد لفت انتباهه قائلا :

ـ أنا لا أجد فيها ما يسلى ، أليس كذلك !

ـ ولكن الجميع رأوا فيها ذلك ياباسكوال .

ـ فليكن ، لا أرفض ذلك ، ولكن ما أقوله هو أنه ليس من حسن الأدب أن نضحك البعض على حساب الآخرين .

ـ لا تهمز ، ياباسكوال : فأنت تعرف من هو أحق بالهمز ...

ـ وأنا أيضا لا أرى من شيم الرجال أن يخرج المرء بنكات تشبه الإهانات .

ـ أتقصدنى بذلك ...

ـ كلا : أقصد حاكم المدينة .

ـ إنك قليل الشأن بالنظر إلى ما يصدر عنك من تهديدات .

ـ ولكنى أنفذ .

ـ أنت تنفذ ؟

ـ نعم !

ثم نهضت واقفا .

ـ أتريد أن نخرج إلى الحقول ؟

ـ ليس بلازم !

ـ تتصور أنك شجاع !

وقد انتحى الأصدقاء جانبا ، لأنه ليس من شيم الرجال أن يحشر المرء نفسه ليمنع اللكمات .

ثم فتحت المطواة فى رصانة : وفى هذه اللحظات كان أى اندفاع ، أو أى خطأ يمكن أن يتمخض عن نتائج مشئومة . وقد

ران صمت عميق لدرجة أن المرء كان يمكنه سماع طيران الذبابة .

تقدمت نحوه ، وقبل أن أعطيه الفرصة ليعتدل ، طعنته بالمطواة ثلاث طعنات خرَّ بعدها صريعا . وعندما حملوه متوجهين إلى صيدلية السيد رايموند ، كان الدم يتدفق منه مثل ينبوع ...

- ٩ -

توجهت إلى المنزل فى صحبة ثلاثة أو أربعة من أصدقائى الحميمين ، وأنا شاعر ببعض الضيق لما حدث منذ قليل .

- أيضا كان الحظ سيئا ..., بعد ثلاثة أيام فقط من الزواج .

كنا نمشى صامتين ، والرأس منكسة ، كحال النادمين .

- هو الذى جلب ذلك لنفسه : أنا ضميرى مرتاح جدا . لو أنه لم يتكلم !

- لا تقلب الموضوع على وجوهه ، ياباسكوال .

- يارجل ، لأنى أحس بالأسى ، ها أنت ترى ! بعد أن لم يعد يجدى الأسى !

كنا فى ساعة الفجر ، والديوك تطلق أولى صيحاتها فى الفضاء . والحقول تفوح منها رائحة الأزهار والزعتر .

- فى أى مكان طعنته ؟

- فى أحد كتفيه .

- طعنات كثيرة ؟

- ثلاث

- هل سيبرأ ؟ .

- نعم ، يارجل ! أعتقد أنه سيبرأ !

- هذا أفضل .

ولم يحدث أبدا أن بدا لى بيتى بعيدا جدا مثلما حدث فى تلك الليلة .

- الجو برد ...

- لا أدرى ، ولا أشعر به .

ـ إذن فهو الجسد !
ـ ربما ...
ومررنا على القرافة .
ـ أى سوء يفرض على المرء أن يكون هنا فى الداخل !
ـ يارجل ! لماذا تقول هذا ؟ وأية أفكار غريبة تركب رأسك !
ـ ها أنت ترى !
كانت شجرة السرو تبدو مثل شبح طويل وجاف ، وكأنها حارس الأموات .
ـ قبيحة شجرة السرو ...
ـ قبيحة .
وكان على شجرة السرو بومة ، طائر ذو فأل سيىء . يسمعنا صفيره المحاط بالأسرار .
ـ طائر سيىء هذا .

ـ سيىء ...
ـ وهو فى كل الليالى موجود هنا .
ـ كل الليالى ...
ـ يبدو أنه يستمتع بمصاحبة الأموات .
ـ يبدو ...
ـ ماذا دهاك ؟
ـ لا شىء ! ليس عندى شىء ! كما ترى ، مجرد عادة ... نظرت إلى دومينجو : كان شاحبا مثل شخص يحتضر .
ـ هل أنت مريض ؟
ـ كلا ...
ـ خائف ؟
ـ أنا أخاف ؟ وممن أخاف ؟
ـ لا أحد ، يارجل ، لا أحد : مجرد كلام .
وتدخل السيد الشاب سيباستيان :

- هيا ، كفوا عن الكلام : نريد أن نغذ السير حتى نصل بسرعة .
- كلا ...
- هل بقيت مسافة كبيرة ، ياباسكوال ؟
- قليل : لماذا ؟
- لا شيء ...
كان البيت يبدو وكأنما قد نقل بواسطة يد سحرية ، مضت به المرة تلو المرة إلى بعيد جدا .
- هل تجاوزنا المكان ؟
- كلا ، يارجل ! لو كان كذلك لعثرنا على ضوء ما . فلنعد للصمت . ولم يبق إلا القليل .
- هل هو ذاك ؟
- نعم
- ولماذا لم تقل ذلك من قبل ؟
- ولماذا ؟ ألم تكن تعرف ؟
والحق أنى دهشت للصمت الذى كان يخيم على بيتى . فالمفروض أن النسوة مازلن هناك وفقا للعادة ، والنساء ، كما تعرف سيادتك ، أكثر شيء يرفعنه هو الصوت عند الكلام .
- يبدو أنهن نائمات .
- لا أعتقد ! فهناك ضوء !
اقتربنا من البيت : وبالفعل كان هناك ضوء .
كانت السيدة إنجراثيا عند الباب ، تتحدث بالسين مثل بومة السرو : ولعل وجهها كان هو أيضا مثل وجه البومة .
- سيادتك هنا ؟
- ها أنت ترى يابنى ، كنت أنتظرك .
- تنتظرينني ؟
- نعم
لكن اللهجة التى كانت تحمل سرا والتى استخدمتها معى

السيدة إنجراثيا لم ترق لى .

ـ اتركينى أدخل !

ـ لا تدخل !

ـ لماذا ؟

ـ هكذا !

ـ إنه بيتى !

ـ انا أعرف يابنى ؛ بيتك منذ سنوات طويلة ... لكنك لا تستطيع أن تدخل .

ـ ولكن لماذا لا أستطيع أن أدخل ؟

ـ لأنه لا يمكن يابنى . فزوجتك فى حالة سيئة !

ـ سيئة ؟

ـ نعم .

ـ ماذا حدث لها ؟

ـ لا شىء ؛ لقد أجهضت .

ـ نعم ؛ طرحتها الفرسة أرضا ...

إن الحنق الذى تغلغل فى داخلى لم يجعلنى أرى الأشياء بوضوح ؛ فقد أصيب قلبى بالعمى حتى أنى لم أدرك ما كنت أسمعه .

ـ أين هى الفرسة ؟

ـ فى الاسطبل .

كان باب الاسطبل الذى يؤدى إلى الحوش واطىء العتبة . فلنحيت لكى ادخل ؛ لم يكن يرى أى شىء .

ـ أنت ، يافرسة !

اقتربت الفرسة من المذود ؛ وأنا فتحت المطواة بعنلية : وفى تلك اللحظات لو حدث أن زلت الرِّجل لأدى ذلك إلى نتائج مشئومة .

ـ أنت ، يافرسة !

وعاد الديك يصيح فى الصباح .

- أنت ، يافرسة !

تحركت الفرسة نحو الركن . اقتربت منها : ووصلت حتى استطعت أن أوجه لها ضربة على وركها . كانت الدابة متيقظة ، وعنيدة .

- أنت ، يافرسة .

لم يستغرق ذلك إلا لحظة . فقد بركت فوقها ، وطعنتها ؛ طعنتها عشرين طعنة على الأقل ...

كان جلدها صلبا : أصلب بكثير من جلد زكريا ... وعندما خرجت من هناك كان ذراعى يؤلمنى ، وقد وصل الدم حتى مفصل الكوع . أما الدابة فلم تتكلم ولم تئن ؛ واقتصرت على أن تتنفس بعمق ، وبسرعة ، مثلما كانوا يطلقونها للذكر .

— ١٠ —

من المؤكد أن أقول لك إننى فى تلك اللحظة - وإن كنت بعد هذا ، عندما هدأت ، فكرت عكس ذلك - لم يطرق خيالى إلا شىء واحد عبارة عن فكرة تقول إن اجهاض لولا كان يمكن أن يحدث لها قبل أن نتزوج ، ولو حدث ذلك فكم كان سيوفر علىّ من مشاعر الألم والحفيظة والتسمم !

فقد ترتب على ذلك الحادث المؤلم أن صرت هالكا وغارقا فى خيالات سوداء . ولم يحدث رد فعل لدى إلا بعد مرور مالا يقل عن اثنى عشر شهرا طوالا . كنت أهيم خلالها فى أنحاء القرية شارد اللب ، وبعد عام أو أقل قليلا من ضياع ما كان سيأتى ، أصبحت لولا حاملا من جديد . واستطعت أن أرى بسعادة كيف صارت تغمرنى الأشواق . ويغزونى القلق على النحو الذى حدث لى فى المرة الأولى : كان الوقت يمر ببطء شديد بينما كنت أود لو يمضى بأسرع مايكون وكان هناك مزاج شيطانى يصحبنى مثل ظلى فى أى مكان ذهبت إليه .

أصبحت نفورا فظا. مفرط الخوف متجهما ، وبما أنه لا زوجتى ولا أمى كانتا تفهمان كثيرا فى مسألة الأمزجة . فقد غدونا جميعا فى حالة استنفار دائمة نترقب من أين تخرج المشاجرة . كان هذا الاضطراب يمزقنا ، لكنه يبدو وكأننا نمارسه باستمتاع .

كان كل شىء يبدو لنا حامل اشارات . وكل شىء ينطوى على نية سيئة ، وكل شىء له هدف آخر . كانت شهورا فيها من الأختناق مالا يمكن لك أن تتصوره .

أما مجرد التفكير في أن زوجتي يمكن أن تجهض مرة أخرى فهو أمر كان يجعلني أخرج عن طوري ، كان الاصدقاء يلاحظون أني أصبحت غريبا ، وكانت الكلبة تشيبا ـ وهي على قيد الحياة حتى تلك اللحظة ـ تبدو وكأنها تنظر إليّ بميل أقل من ذى قبل .

وكنت أحدثها ، كالعادة .

ـ ماذا لديك ؟

وهي تنظر إليّ وكأنها تتوسل ، محركة ذيلها بسرعة جدا ، في شبه أنين ، وعيناها مركزتان عليّ في وضع يمزق نياط القلب . فهي أيضا قد أجهضت ، مات لها ثلاثة أبناء في بطنها ، وفي براءتها ، من يدري هل لديها علم بهذا الاسى الكبير الذى أحدثته لي مصيبتها هذه ! كانوا ثلاثة كلاب صغيرة لم يولدوا أحياء ، الثلاثة متساوون ، والثلاثة فيهم لزوجة مثل لزوجة الشراب ، والثلاثة لونهم رمادى ونصف أجرب مثل الفئران . وقد حفرت حفرة في أحد الأركان ووضعتهم فيها وعندما ذهبنا إلى الجبل خلف الأرانب توقفنا برهة نلتقط الأنفاس ، كانت هي ، بهذا المزاج المؤلم لأنثى فقدت أبناءها ، تقترب نحو الحفرة كي تشمها .

وعندما حل الشهر الثامن كانت الاشياء تسير وكأنها فوق قضبان . وعندما بدا أن حمل زوجتي ، بفضل نصائح السيدة إنجراثيا ، قد أصبح نموذجا طيبا للحمل ، وعندما صار كل شيء بعد أن انصرم وقت طويل ولم يبق إلا القليل ، يدعونا إلى الاعتقاد بأنه لم يعد مجال للحذر والحيطة الشديدة ، داخلتني هواجس الاشواق وركبتني دوافع العجلة ، حتى أني في تلك الأيام كنت متأكدا إني لن أصاب بالجنون في الحياة إذا خرجت بعقلي سليما من تلك الورطة .

وفي الأيام التى حددتها السيدة إنجراثيا ، وكأن لولا كانت ساعة ، محددة مواعيدها بدقة ، جاء إلى العالم ، ابني الجديد أو

بالأحرى ابنى الأول ، بكثير من البساطة والسهولة حتى أنى كنت مندهشا ، وقد وضعنا له مع شمعة التعميد اسم باسكوال ، مثل ابيه ، خادمك ، وأنا كنت أريد أن أسميه ادوارد لأنه ولد فى يوم هذا القديس ، وهذه هى العادة عندنا ، ولكن زوجتى ، التى كانت فى ذلك الحين شديدة الود لى أصرت على أن نطلق عليه الاسم الذى أحمله ، وهو أمر اقتنعت به بعد فترة وجيزة نظرا للأمل الكبير الذى كان يحدونى ، كل هذا يبدو لى الآن أكذوبة ، ولكنى أؤكد لك أنه مر بى . وتصور فى ذلك الحين الأمل الذى يمكن أن يغمرك لقدوم طفل ينتعل حذاء جديدا ويؤجج مشاعر الود عند زوجتك تجاهك . كنت أشكر لهما ذلك من كل قلبى ، أقسم لك بهذا .

أما هى ، فنظرا لطبيعتها القوية الصارمة ، فقد بدت جديدة بعد يومين فقط من الولادة ، وكأن لم يحدث شىء ، والصورة التى كانت عليها ، شعثاء تماما وهى ترضع الطفل ، كانت من أكثر الاشياء التى أثرت فى على امتداد حياتى . فهذا المنظر وحده كان يعوضنى ويفيض عن المئات من اللحظات السيئة الماضية .

كنت أقضى ساعات طويلة جالسا عند أرجل السرير وكانت لولا تقول لى بصوت خفيض جدا . فيه خفر .

- لقد أعطيتك ابنا .
- نعم ..
- فيه ملاحة .
- شكرا لله .
- والآن ينبغى أن تحافظ عليه .
- من الخنازير .

وقد قفزت ذكرى أخى المسكين ماريو الى ذهنى . فلو أنه كان لى ابن بنفس مأساة ماريو ، لخنقته حتى أخلصه من المعاناة .

- نعم ، من الخنازير .

ـ ومن نوبات الحمى أيضا .

ـ نعم .

ـ ومن ضربات الشمس ..

ـ نعم .. أيضا من ضربات الشمس .

وكان التفكير فى أن تلك القطعة اللينة من اللحم التى هى ابنى ، يمكن أن تكون معرضة لكل هذه الاخطار ، يجعلنى فى مثل لحم الدجاجة .

ـ سوف نقوم بتطعيمه .

ـ عندما يكبر قليلا .

ـ وسوف نلبسه حذاء دائما ، حتى لاتقصر رجلاه .

ـ وعندما يبلغ من العمر سبع سنوات سوف نرسله الى المدرسة .

ـ وأنا سوف أعلمه الصيد البرى .

كانت لولا تضحك ، انها سعيدة ! وأنا أيضا كنت أحس بالسعادة لماذا لا نقول ذلك ؟ ، عندما أنظر اليها ، بجمالها المنقطع النظير ، وابنها على ذراعها مثل القديسة مريم .

ـ سوف نجعل منه رجلا يعرف من أين تؤكل الكتف !

ولم نكن نفكر ابدا نحن الاثنين أن الله ـ الذى ينظم كل شىء لكى تمضى الأكوان فى مسارها السليم ـ سوف يأخذه منا !

إنه أملنا ، جماع الخير بالنسبة لنا ، وثروتنا الكاملة ، ذلك الابن الذى سوف نفقده رغم أنفنا قبل أن نجرب كيف نوجهه ، يا لأسرار العواطف . تذهب عنا عندما نكون فى أشد الحاجة اليها !

كانت المتعة التى أحس بها وأنا أتأمل الطفل تتحول إلى وخزات شوكة شديدة السوء ، دون أن أعثر على سبب يبرر ذلك . فدائما كانت عينى مفتوحة جيدا على المصائب .

ـ ولا أدرى هل لحسن الحظ أم لسوء الحظ ـ وهذا الاحساس الداخلى ، مثل كل المرات ، أخذ يتأكد لى عندما مرت بعض

الشهور وكأنه يزيد من تعاستي ، هذه التعاسة التى كان يبدو أنها لن تتوقف أبدا عن الدوران حولى .

وظلت زوجتي تحدثنى عن الابن .

ـ إنه يكبر بصورة طيبة .. ويبدو مثل لفة من الزبدة . وهذا الكلام المتواصل عن الطفل أصبح شيئا فشيئا بالنسبة لى أمرا كريها ، كان لابد أن يغادرنا ، وأن يتركنا غارقين في أشد حالات الاحباط ، وأن يخلينا مثل تلك المزارع المهملة التى تستولي عليها نباتات النار والعليق ، والضفادع والعظاءات ، وأنا كنت أعرف ذلك ، كنت متأكدا منه ، وشاعرا بقدوم النكبة ، كنت على يقين أن ذلك لابد أن يحدث إن عاجلا أو أجلا ، ولأنى لم أكن استطيع أن أقف ضد ما يوحى لى به احساسي فقد أدى هذا إلى أن صارت قريحتى في حالة اضطراب شديدة .

وفي بعض الأحيان كنت أظل أنظر ، مثل برىء ، إلى باسكوال الصغير ، وأجد عينى بعد لحظات قليلة مترقرقة بالدموع ، كنت أخاطبه .

ـ باسكوال ، يابنى .

وكان هو يبتسم لى بعينيه المدورتين ، ويبتسم .

وتعود زوجتى لتتدخل .

ـ ياباسكوال ، إن طفلنا يكبر بصورة طيبة

ـ حسنا ، يالولا ، نتمنى أن يظل هكذا

ـ لماذا تقول ذلك ؟

ـ ها أنت ترين . الاطفال ضعاف جدا !

ـ لاتكن سيىء التفكير ، يارجل !

ـ كلا ، لست سيىء التفكير ، كلا .. ينبغى أن نعتنى به كثيرا !

ـ كثيرا !

ـ ونتجنب اصابته بالبرد .

ـ نعم .. فيمكن أن يؤدى هذا إلى موته

ـ الاطفال يموتون من البرد .
ـ من أية نسمة هواء سيئة !
أخذت المحادثة تموت شيئا فشيئا ، مثل العصافير أو مثل الأزهار ، وبنفس العذوبة ، والبطء التى يموت بها ، شيئا فشيئا أيضا ، الأطفال ، الاطفال الذين يتخللهم أى هواء خائن غير عليل .
ـ أنا أحس بالفزع ، ياباسكوال .
ـ من ماذا ؟
ـ ترى لو أنه ذهب منا !
ـ ياأمرأة .
ـ إن الاطفال جسمهم هش جدا فى هذه السن !
ـ إن ابننا فى حالة طيبة جدا ، بجسمه الوردى وابتسامته التى تنطبع على الفم دائما .

ـ هذا صحيح ، ياباسكوال ، انى لعبيطة !
كانت تضحك ، بعصبية واضحة ، وهى تضم الطفل إلى صدرها .
ـ اسمع !
ـ ماذا !
ـ من ماذا توفى ابن كارمن ؟
ـ ماشأنك بهذا ؟
ـ لمجرد المعرفة .. يارجل ؟
ـ يقال انه مات من داء يصيب الطيور
ـ لعله هواء سيىء ؟
ـ يبدو ذلك .
ـ مسكينة كارمن ، كم كانت سعيدة بابنها ! كانت تقول إنه يشبه وجه أبيه ، هل تذكر ذلك ؟

- نعم أذكره .
- يبدو أن الانسان عندما يضع كل أمله فى شيء فإنه لايلبث أن يفقده .
- نعم
- ينبغى أن نعرف كم من الوقت سيستغرقه كل ابن وليكن ذلك مكتوبا على الجبهة .
- صه !
- لماذا ؟
- لا استطيع أن أسمعك .
- إن خبطة فأس فى الرأس فى تلك اللحظة لم تكن لتجعلنى أكثر انسحاقا بأكثر مما فعلته كلمات لولا .
- هل سمعت ؟
- ماذا !
- النافذة .
- النافذة ؟
- نعم ، تصر وكأنما يريد أن يتخللها بعض الهواء وقد اختلط صرير النافذة ، والهواء يرجها ، بصوت أنين
- هل نام الطفل ؟
- نعم .
- يبدو أنه يحلم .
- لا أسمعه .
- وأنه يأسى وكأن به بعض السوء .
- أوهام !
- الله يسمع منك ! هل تتركينى ألقى عليه نظرة . فى المضجع ، كان أنين الطفل يشبه نحيب أشجار البلوط عندما تمر بها الريح .

ذهبت لولا لترى ماذا يحدث له ، وأنا بقيت فى المطبخ أدخن سيجارة ، هذه السيجارة التى يأخذونها منى دائما وأنا أدخن فى لحظات الضيق .

....

لم يستمر إلا أياما قليلة . وعندما أعدناه إلى الأرض ، لم يكن عنده إلا أحد عشر شهرا ، أحد عشر شهرا من الحياة ، ومن كل أصناف العناية ، ألقى بها على الأرض بعض هواء خائن سيىء .

من يدرى هل كان الله هو الذى يعاقبنى على الخطايا الكثيرة التى ارتكبتها أو على ماسوف أرتكب من خطايا فيما بعد !

ومن يدرى هل كان مكتوبا فى اللوح المحفوظ أن المحن هى طريقى الوحيد ، وسبيلى الوحيد الذى مضت فيه أيامى الحزينة !

أن المحنة لايتعود عليها الانسان ، صدقنى ، لأننا دائما نلوذ بالأمل فى أن مانعانى منه هو آخر شىء فى طريقنا بالرغم من أننا بعد ذلك ، مع مرور الوقت نبدأ نعتقد - وبكثير من الحزن - أن اسوأ شىء لم يأت بعد ..

وقد طرأت على ذهنى هذه الافكار لأنى عندما حدث الاجهاض عند لولا وعندما طعنت زكريا اعتقدت أنى سوف يغمى علىّ من الشوق لا لشىء إلا لأنى - وهذا أمر مؤكد - لم أكن حتى ذلك الوقت أشك فى أن الأمور يمكن أن تتوقف عند هذا الحد .

كانت هناك ثلاث سيدات أحطن بى عندما غادرنا باسكوال الصغير ، ثلاث سيدات كنت مرتبطا بهن برباط ما ، بالرغم من أنى فى بعض الأحيان كنت أجدنى غريبا عليهن مثلما تقابل شخصا مجهولا تلتقى به لأول مرة ، فأحس بأنى بعيد عنهن مثل بعدى عن باقى الناس ، ومن هؤلاء الثلاث سيدات ، لا تجد واحدة صدقنى ، لا واحدة عرفت بعطفها ، أو بطرقها الخاصة كيف تخفف علىّ مأساة موت الابن ، وانما على العكس ، بدا وكأنهن قد اتفقن على أن يزدن حياتى مرارة ، هؤلاء النسوة

الثلاث هن زوجتى ، وأمى ، وأختى .

فمن يستطيع أن يتحدث عن الآمال التى كانت تحوطنى عندما أكون فى صحبتهن !

إن النساء يشبهن الغربان ، فى الشؤم ونكران الجميل . دائما كان كلامهن هكذا .

- الملاك الصغير الذى حمله هواء سيىء !
- ذهبوا به إلى الأعراف كى يخلصوه منا !
- المخلوق الذى كان يشبه الشمس نفسها !
- والاحتضار !
- لقد وضعته على ذراعى وروحه تزهق .
- كانت هذه الكلمات تبدو وكأنها أوراد ، مرهقة وبطيئة مثل ليالى النبيذ . مملة ومشحونة مثل مشى الجحوش .

وهكذا مر يوم ، ويوم آخر ، وأسبوع ، وأسبوع آخر .. كان هذا مرعبا ، عتابا من السماء أو بالتأكيد لعنة من الله .

أما أنا فكنت أكبت حزنى .

وفكرت « لعلها الألفة هى التى جعلتهن قاسيات دون أن يردن ذلك » .

وحاولت ألا اسمع . ألا أهتم ، وأنا أراهن يتصرفن دون أن أضعهن فى اعتبارى وكأنهن دمى . وألا أعبأ بكلامهن .. وتركت الأسى يموت مع الوقت مثل الزهرات المقطوعة ، لائذا بصمتى مثل جوهرة فى محاولة لكى أخفف من معاناتى ما استطعت إلى ذلك سبيلا . انها طموحات جوفاء لم تكن لتخدمنى فى شىء اللهم إلا لكى تجعلنى ازداد استغرابا يوما بعد يوم .. أزاء مقولة الذين يولدون من أجل الطريق السهل . وكيف تجسدت هذه الافكار ، بأمر الله ، فى مخيلتى .

كنت أخشى غروب الشمس مثلما أخشى النار أو مثلما أخشى

الحنق ، أما اشعال قنديل المطبخ ، فى حوالى السابعة مساء ، فهو الشىء الذى كان يؤلمنى فعله على امتداد النهار . فكل الظلال كانت تذكرنى بالابن الميت ، وكل ارتفاع أو انخفاض فى اللهيب ، وكل ضوضاء الليل ، هذه الضوضاء التى لا تكاد تسمع ، لكنها ترن فى أذاننا مثل طرقات السندان على الحديد .

وهناك كان النسوة الثلاث بلباس الحداد مثل الغربان يلفهن الصمت مثل الموتى ، نافرات ، وجادات مثل شرطى الدرك .

وفى بعض الأحيان كنت أكلمهن ، فى محاولة لإذابة الجليد .

- الظرف قاس جدا .

- نعم ..

ثم نعود جميعا الى الصمت .

وألح من جديد .

- يبدو أن السيد جريجوريو لم يعد يبيع البغلة ، لعله سوف يحتاجها فى شىء !

- نعم .

- هل ذهبتن الى النهر ؟

- كلا .

- وإلى المقابر ؟

- أيضا لم نذهب .

ولم أعثر على وسيلة لإخراجهن مما كن فيه . والصبر الذى استخدمته معهن لم استخدمه أبدا من قبل ، ولا سوف أعود لأستخدمه بعد ذلك مع أحد ، كنت أبدو وكأنى لم أنتبه الى الوضع الغريب الذى كن عليه ، حتى لا أندفع إلى الفضيحة التى كان لابد أن تقع ، وهى محتومة مثل الأمراض ، والحرائق ، مثل طلوع الشمس ، ومثل الموت ، لأنه لا أحد يملك القدرة على أن يمنعها .

ويبدو أن أكبر المآسى فى حياة الناس تأتى دون أن يفكروا

فيها ، فى خطى تشبه خطى الذئب الحذر ، فتوخزنا بمهمازها المفاجىء المخادع مثل ذنب العقارب .

ويمكننى أن أرسمهن الآن وكأنهن مازلن أمام عينى ، بابتسامتهن المرة ، وأطلال الانثى الباردة ، بنظراتهن الشاردة لعدة فراسخ عبر الجدران . كانت اللحظات تمضى بقسوة ، والكلمات ترن ، وكأنها أصوات خارجة من شخص ظهر فجأة .

- ها نحن نراه .

ولعل البومة كانت واقفة على شجرة السرو .

- كان مثل هذه ، الليل .

- نعم .

- كان الوقت متأخرا شيئا ما .

- نعم

- والهواء الخائن السيىء لايزال يطوف بالحقول .

- ضائع فى مزارع الزيتون .

- نعم .

وعاد الصمت بجرسه الطويل يملأ الحجرة .

- أين سيمضى ذلك الهواء ؟

- ذلك الهواء السيىء الخائن !

وتأخرت لولا بعض الوقت فى الرد .

- لا أدرى .

- لعله يمر ببعض المخلوقات .

وقد قامت زوجتى بعمل حركة لايمكن أن تفعلها لبؤة تتعرض للهجوم .

- من أجل أن تستلقى انسانة مثل رمانة ! تلد حتى يحمل الهواء المولود ، عقاب سيىء ينتظرك .

- لو أن شريان الماء الذى ينبع نقطة نقطة فوق القناة أمكنه أن يقضى على ذلك الهواء السيىء !

— ١٢ —

لقد تغلغلت حتى العظام فى جسدك !

....

- وفى لحمك كرجل لايتحمل عوادى الزمن !

....

- ولايتحمل شمس الصيف !

....

- ولا برد ديسمبر !

....

- ومن أجل هذا ربيت أنا صدرى . الصلب مثل الصوان !

....

- ومن أجل هذا ربيت أنا فمى . البارد مثل الخوخ !

. ...

- ومن أجل هذا أعطيتك أنا ولدين ، لم يعرفا كيف يتحملان سير الدابة ولا هواء الليل السيىء !

....

كانت مثل المجنونة ، وكأنما قد ركبتها كل الشياطين ، هائمة ومتوحشة مثل قط برى .. وكنت أنا أتحمل صامتا الحقيقة الكبرى .

- إنك مثل أخيك !

.. إنها طعنة الخيانة التى كانت زوجتى تستمتع بتصويبها إلىّ :

لم يفدنا فى شىء أن نغذ السير عندما فاجأتنا العاصفة فى وسط السهل . فقد ابتلت ملابسنا وشعرنا بالتعب أكثر ، وأربكتنا الشرارات المنطلقة ، وشوش علينا هزيم الرعد ، وأخذ دمنا ، وهو فى حالة مضطربة ، يضرب فى الجبهة والحنجرة .

- أى ، لو أن أباك استيبان رأى سوء حظك !

....

- ودمك الذى يراق على الأرض عند لمسها !

....

- هذه المرأة التى تملكها !

....

هل كان يجب أن نواصل ؟ وقد سطعت الشمس فى كثير من الاحيان من أجل الجميع ، لكن ضوءها ، الذى يعشى عيون الناس ذوى البشرة البيضاء والشعر الابيض ، لايكاد يصل الى السود لكى يطرف عيونهم .

- لا تواصل !

ولم تكن أمى تستطيع أن تلومنى على الألم ، الألم الذى تركه فى صدرى الابن الميت ، المخلوق الذى ذهب مثل البرق ولما يتجاوز عمره الأحد عشر شهرا .

لقد قلت ذلك بشكل واضح ، وليس هناك وضوح أكثر من هذا .

- إن النار لابد وأن تحرقنا نحن الاثنين ياأمى .

- أى نار ؟

- هذه النار التى مازلت تلعبين بها .

وفعلت أمى حركة تدل على الاستغراب .

- ما الذى تريد أن تراه ؟

- إننا نحن الرجال نمتلك قلوبا شديدة الغلظة .

- لا يفيدكم هذا فى شىء .

- بل يفيدنا فى كل شىء !

لم تكن تفهم ، أمى لم تكن تفهم . كانت تنظر إلىّ ، وتكلمنى .. آى ، ليتها لم تنظر إلىّ !

- هل ترى الذئاب التى تنطلق فى الجبل ، والباشق (نوع من النسور - المترجم) الذى يطير نحو السحب ، والثعبان الذى يترصد بين الصخور ؟

....

- الانسان أسوأ من كل هذه الكائنات مجتمعة !
- لماذا تقول لى هذا ؟
- لا لشىء !

وفكرت أن أقول لها .

- لأنى لابد أن أقتلك !

ولكن الصوت توقف فى حلقى .

وبقيت أنا وحدى مع الأخت ، البائسة ، المدنسة ، تلك التى كانت تملأ نظرة النساء المصونات بالبقع .

- هل سمعت ؟
- نعم
- لم أتصور ذلك أبدا !
- ولا أنا .
- ولم أفكر أبدا أنى انسان ملعون .
- ولست كذلك .

وقد تدافع الهواء على الجبل ذلك الهواء الخائن السيىء الذى كان ينطلق بين مزارع الزيتون ، والذى سوف يصل الى البحر حاملا معه بعض المخلوقات الهشة .. كان يصر فى النافذة بأنينه .

وبدت روساريو وكأنها تبكى .

- لماذا تقول إنك انسان ملعون ؟

ـ لست أنا الذى اقول ذلك .

....

ـ إنهما هاتان المرأتان .

كان لهيب القنديل يصعد ويهبط مثل التنفس ، وفى المطبخ تنبعث رائحة الاسيتيلين ، الذى تفوح منه رائحة حادة وجذابة تتعمق حتى الأعصاب ، فتثير لحومنا ، لحومى الفقيرة المدانة التى لم يكن من السهل فى تلك الفترة أن تستجيب لأية إثارة .

كانت أختى شاحبة ، لأن الحياة التى تحياها كانت تترك علامتها القاسية على أذنيها ، كنت أحبها بشفقة ، وكانت هى الاخرى تحبنى كذلك .

ـ روساريو ، ياأختى .

ـ باسكوال .

ـ حزين هو الزمن الذى ينتظر كلينا .

ـ كل شىء سينصلح .

ـ ربنا يفعل مافيه الخير !

وعادت أمى تتدخل .

ـ أرى أنه سيصير أسوأ .

وزوجتى ، الشريرة مثل الحية ، كانت تنطبع على شفتيها ابتسامة السوء .

ـ أنه لمحزن أن نتواكل وننتظر من الله أن يصلح من شئوننا . إن الله فى السماء يرى كل شىء ، ولا تخفى عليه خافية ،

ـ واذا أصلحه الله !

ـ ألن يريد لنا الخير .

....

يقتل الانسان نفسه دون أن يفكر ، لقد جربت ذلك جيدا ، وأحيانا دون أن يريد ، يكره نفسه ، بشدة ، وبوحشية ، ويفتح المطواة ، ثم وهى مشرعة هكذا جيدا ، يصل ، حافيا ، إلى

السرير الذى ينام عليه العدو . الجو ليل ، لكن ضوء القمر يتسلل من خصاص النافذة ، الرؤية واضحة ، وعلى السرير يستلقى الميت ، الذى سوف يُمْسِى ميتا ، المرء ينظر إليه ، يسمعه يتنفس ، لايتحرك انه ساكن وكأن لاشىء سوف يحدث .. وبما أن الحجرة قديمة فإن الأثاث يثير الفزع بصريره لأنه يمكن أن يوقظه ، ومن ثم فإنه ربما يضطر المرء الى الاسراع بالطعنات . العدو يرفع طرف الملاءة قليلا ، ويستدير : مازال نائما ، جسده يتضخم كثيرا ، الملابس تخدع . المرء يقترب بحذر شديد ، يلمسه بيده فى عناية أنه نائم ، يغط فى نوم عميق ، ولن يحس بشىء .

ولكن لايمكن أن يتم القتل هكذا ، إن هذا هو ما يفعله القتلة والمرء يفكر فى أن يعود أدراجه أن يتقهقر نفس الخطوات التى خطاها .. كلا ، ليس هذا ممكنا ، كل شىء تم التفكير فيه جيدا ، إنها لحظة ، لحظة قصيرة ، وبعد ذلك .

ولكن ليس من الممكن أيضا أن يعود القهقرى ، سوف يطلع النهار وفى النهار ربما لانستطيع أن نتحمل نظرته ، هذه النظرة التى مازالت تنغرس فينا دون أن نصدق ذلك .

لابد من الهرب ، الهرب بعيدا عن القرية ، حيث لا أحد يعرفنا ، وحيث نستطيع أن نبدأ فى الكراهية بأنواع جديدة منها .. فالكراهية تتأخر سنوات حتى تتضخم ، والمرء لم يعد بعد طفلا وعندما تكبر الكراهية وتخنق فينا النبضات ، تتأهب حياتنا للمغيب . فالقلب لن يتسع لقدر أخر من المرارة وهذه الأذرع ، التى بلا قوة ، سوف تسقط .

ـ ١٣ ـ

ظللت شهرا كاملا تقريبا دون أن أكتب شيئا ، مستلقيا على المرتبة ورأسي لأعلى ، أتأمل مرور الساعات ، هذه الساعات التى تبدو أحيانا وكان لها اجنحة ، وأحيانا تتمثل لنا مثل المشلولة ، وقد تركت خيالي يحلق بحرية ، وهو الشيء الوحيد عندى الذى يمكن أن يطير حرا . وأتأمل كشوط السقف كى أبحث لها عما يشبهها ، وفي هذا الشهر الطويل استمتعت على طريقتى ـ بالحياة على نحو لم أعرفه طوال السنوات الماضية بالرغم من كل الكروب والهموم.

عندما يغزو السلام الأرواح الواقعة فى الخطيئة فإنه يكون مثل المياه التى تسقط على الأراضى البور فتؤدى إلى إخصاب الجاف وإحياء الموات . أقول ذلك لأنى إذا كنت قد تأخرت طويلا جدا ، أطول بكثير مما هو مفروض ، فى التحقق من أن الهدوء ماهو إلا بركة من السماء ، بل إنها أعظم بركة يُمن بها على الفقراء والمفزعين ، والآن بعد أن عرفت ذلك ، وبعد أن أصبح الهدوء يرافقنى بحبه ، فإنى أستمتع به فى خبل ونشوة وأخشى كثيرا أن استنفده قبل أن يحين أوان نفاده ، نظرا لقلة مايتبقى لى من وقت ، بل إنه وقت قليل بالفعل . ومن المحتمل أن السلام لو عمنى قبل ذلك بسنوات ، وكان بهذه الدرجة ، التى تتبدى لى الآن وتحمل الكثير من البريق والراحة ، فإنى لأشك كثيرا فى أننى كنت سأصبح مذهولا مثلما أنا الآن . ولكن الله لم يرد أن يحدث هذا ، والآن أجدنى محبوسا والإدانة مصلتة على رأسى ولا أدرى

هل من الأفضل ، إذا سقطت مرة واحدة أو امتد بى هذا الاحتضار ، الذى اتمسك به ، مع ذلك ، بكثير من الألفة ، إذا كان فى ذلك متسع بعد ، أقول هل من الأفضل لكى أتمسك بذلك أن تظل أيام حياتى هادئة . وأنت تعرف جيدا ما أريد أن أقوله .

ففى هذا الشهر الطويل الذى خصصته للتفكير ، مر بى كل شىء : الأسى والفرح ، والمتعة والحزن ، الإيمان والقلق والإحباط .. ياإلهى ، كم كانت هذه النكبات تنزل على أجساد هزيلة . كنت أرتعش وكأنى مصاب بالحمى عندما كانت إحدى حالات النفس تزايلنى وتأتينى أخرى ، وكانت الدموع تهرع إلى عينى خائفة ، أنها ثلاثون يوما طويلة متواصلة ، وأنا متفرغ للتفكير ، فى شىء واحد ، متفرغ لتربية مشاعر الندم العميقة ، ومشغول بفكرة أن كل السيئات الماضية لابد وأن تؤدى إلى الجحيم .. إننى أحسد رجل الصومعة الذى تظهر الطيبة على وجهه ، والطير فى السماء . والسمك فى الماء ، بل أحسد الوحش فى الاجام لأن ذاكرة كل هؤلاء هادئة . إن اسوأ شىء هو الزمن الماضى فى الخطيئة !

وبالأمس اعترفت كنت أنا الذى أعطيت الطلب للراهب جاءنى قسيس عجوز خفيف العارضين ، هو الأب سانتياجو لورينيا ، الطيب المكروب والمحسن البالى مثل نملة .

وهو القسيس الذى يقيم القداس فى ايام الأحاد ، هذا القداس الذى يسمعه حوالى مائة شخص من القتلة ، ونصف دستة من الحرس وزوجان من الراهبات .

وعندما دخل استقبلته واقفا .

- عمت مساء ، ياأبانا .

- مرحبا ، يابنى ، قالوا لى أنك استدعيتنى .

- نعم ياسيدى ، أنا استدعيتك .

اقترب مني وقبلني علي جبهتي . منذ سنوات بعيدة لم يقبلني أحد .

- هل تريد أن تعترف ؟
- نعم ، ياسيدى .
- يابني - انك تمنحني سعادة !
- أنا أيضا مسرور جدا ، ياأبانا .
- غفر الله لك ، فالله هو العزيز الغفار .
- نعم ، ياأبانا .
- إنه لشيء مبهج أن ترى النعجة الضالة عائدة .
- نعم ، ياأبانا .
- والابن المسرف الذى يعود الى بيت أبيه .

ثم تناول يدى بعطف ، وأسندها على ثوبه وأخذ ينظر الى عيني وكأنه يريد أن أفهم أكثر .

- إن الايمان مثل النور الذى يقود أرواحنا عبر ظلمات الحياة
- نعم .
- وهو مثل البلسم الاعجازى للأرواح المتألمة .

كان السيد سانتياجو متأثرا وكان صوته يرتعش مثل صوت طفل مرتبك . نظر إلى مبتسما ، ابتسامة رقيقة تشبه ابتسامة قديس .

- هل تعرف ماهو الاعتراف ؟

كنت أجبن عن الأجابة ، واضطررت أن أقول . بصوت متقطع :

- ليس كثيرا .
- لاتقلق ، يابني ، لا أحد يولد عالما

وقد شرح لي السيد سانتياجو بعض الاشياء التي لم أفهمها من كل الوجوه ، ومع ذلك لابد أن تكون حقيقة لأنها كانت تحمل رنين الحقيقة . ظللنا نتحدث وقتا طويلا ، طوال فترة العصرية

تقريبا ، وعندما انتهى حديثنا كانت الشمس قد اجتازت ساحة الافق .

ـ استعد لاستقبال العفو ، يابنى ، العفو الذى أقدمه لك باسم الله مولانا .. صل معى لمولانا المسيح .

وعندما باركنى السيد سانتياجو ، اضطررت أن أبذل جهدا غير عادى لكى التقط البركة دون أن تكون هناك أفكار خبيثة تعشش فى الرأس ، التقطتها بأفضل ماعندى من قدرة على الاستقبال ، أؤكد لك ذلك ، وقد أحسست بكثير من العار ، كثير جدا ، لكنه لم يكن كثيرا الى الدرجة التى اعتقدت أن يكون عليها .

لم استطع أن أغمض عينى طوال الليل ، واليوم أحس بالتعب والانهاك وكأنى مضروب « علقة » ومع ذلك فيما أن أمامى هنا كومة الأوراق التى طلبتها من المدير . وبما أنى لا أجد أمامى وسيلة أخرى بها من حالة الانسحاق التى أحس بها إلا أن أسود الورق وكثيرا من الورق فسوف أحاول أن أبدأ من جديد ، وأن آخذ مرة أخرى خيط الحكاية ، وأن أعطى دفعة لهذه المذكرات حتى أضعها فى طريق النهاية وسوف نرى هل سأجد القوة الكافية التى تنقصنى كثيرا أم لا .. وعندما أفكر فى أن الاندفاع قليلا فى الأحداث يجعل حكايتى تقف فى المنتصف وتظل مبتورة يتملكنى الضيق وأرغب فى السيطرة على عنصر السرعة ، لأنى اعتقد أنى اذا كنت سأكتب كما سأكتب ، قليلا قليلا ، مستجمعا الحواس الخمس فيما أفعل ، فإن القصة لن تخرج بكل الوضوح الذى أبتغيه ، اللهم إلا اذا تدفقت القصة مثلما يتدفق نبع ، فى غير قليل من عدم الحذق والتجويد ، حتى أن الوالد نفسه ـ الذى هو أنا ـ لن يستطيع التعرف على وليده ، وهذه الاشياء الموجود معظمها فى الذاكرة ينبغى العناية بها بكل حب لأن تشويش الأحداث موضوع ليس له حل إلا بتمزيق الأوراق وإعادة

الكتابة ، وهو حل أهرب منه مثلما أهرب من الخطر ، لأن الأجزاء الثانية لايمكن أن تكون أبدا حسنة ، وربما تجد سيادتك نوعا من الغطرسة في هذه الرغبة عندي في أن تخرج الأشياء الثانوية بصورة طيبة . بينما الاشياء الرئيسية تمضي بشكل سيىء ، وربما تفكر سيادتك والابتسامة على شفتيك أنه من باب الأدعاء المغالي فيه من جانبي أن أشغل نفسي بأن تخرج هذه الأوراق على أفضل مايكون ، وفي هذا فإن أي شخص متعلم سوف يتصرف بشكل طبيعي تماما ، وببساطة شديدة ، ولكن ينبغي أن تضع في اعتبارك الجهد الذي يعنيه بالنسبة لي كوني ظللت أكاتب تقريبا بدون توقف منذ حوالي أربعة شهور . وهو أمر لم يحدث له مثيل في حياتي ، ولهذا فإنه من الممكن أن تجد لي بعض العذر في تفكيري هذا .

إن الاشياء لايمكن أن تكون ابدا على نحو ما نتصورها للوهلة الأولى . ومن ثم يحدث أننا عندما نبدأ نراها عن قرب ساعتئذ نبدأ في التعامل معها ، انها تقدم لنا غريبة جدا وبها جوانب مجهولة تماما عن الفكرة الأولى التي قد لايبقي منها الذكرى في بعض الأحيان . يحدث هذا مع الوجوه التي نتخيلها . ومع الشعوب التي سوف نتعرف عليها ، حيث نفعل ذلك في رأسنا بهذا الشكل أو ذاك ، حتى لننسى أنفسنا فجأة عند رؤية المشهد الحقيقي . وهذا هو ماحدث لي مع هذا الورق ، فإذا كنت في البداية قد اعتقدت أني سوف أنهيه في ثمانية أيام ، فاني الآن - وبعد مائة وعشرين يوما - أجد البسمة تنطبع على شفتي لا لشيء إلا لأني افكر فيما تنطوي عليه شخصيتي من براءة .

ولا أعتقد أنه من الخطيئة أن يحكي المرء أعمالا بربرية هو عليها نادم . وقد صرح لي السيد سانتياجو أن أفعل ذلك اذا كان هذا يحمل لي بعض المواساة ، وبما أنه يحمل لي ذلك فعلا ، والسيد سانتياجو لاينتظر منه إلا أنه يعرف جيدا موقع أوامره

من الخطأ أو الصواب فانى أرى أن الله لن يغضب منى إذا واصلت حكايتى . هناك لحظات يؤلمنى جدا خلالها أن أحكى التفصيلات نقطة بنقطة ، كبيرة كانت أو صغيرة ، عن حياتى الحزينة ، ولكن هناك لحظات أخرى فيها تعويض ، لحظات أتمتع فيها أيضا بأشرف المتع وأفضلها ، ربما لأنى وأنا أحكيها أجدنى بعيدا جدا عن كل هذا الماضى . وكأننى أحكى سماعا أو نقلا عن شخص مجهول - وثمة فرق كبير بين الماضى وبين ما أحاول أن أجعله أنا ماضيا اذا استطعت أن ابدأ من جديد ! ولكن ينبغى أن يرضى الانسان بما هو كائن ، وماليس له أى علاج ممكن وما هو واقع فعلا ، ونحاول أن نحول دون استمراره ، وأنا بالذات لا أعرف كيف أتجنب ذلك وإن كان هناك عامل مساعد في هذا وهو الحبس .. لا أريد أن أبالغ في النقطة المتعلقة بوداعتى في هذه الساعة الأخيرة من حياتى لانى سوف أقول كلاما يبدو مثل الجدرى فى فترة الشيخوخة ، ومن الأفضل الا أنطق به ، لكنى أريد مع ذلك أن أترك الاشياء عند نقطتها الأخيرة ، وأؤكد لك أن عائلتى كانت ستصبح عائلة نموذجية لو أن حياتى سارت كلها على نفس الطريق المستقيم الذى تسير عليه اليوم .

سوف أستمر - إن شهرا بدون كتابة فيه هدوء كبير لمن نبضاته معدودة وطمأنينة زائدة عن الحد لمن أجبرته العادة على أن يكون غير مطمئن .

لم أضع الوقت فى الإعداد للهرب . فهناك موضوعات لاتقبل الانتظار . وهذا موضوع منها . لقد قلبت الصندوق فى الحقيبة ، وخزانة الطعام في الخرج وصابورة (ما يوضع من ثقل لاحداث توازن المترجم) الافكار السيئة فى عمق البئر . ولكى أستغل الليل مثل لص ، انصرفت . وضعت رحلى على الطريق ، وبدأت فى السير - دون أن أعرف جيدا الى أين أمضى . للامام وبشكل متواصل - لدرجة أنه . عند طلوع النهار ، وعندما زادت حدة التعب الذى كنت أحس به فى العظام . كانت القرية خلفى على بعد لايقل عن ثلاثة فراسخ وبما أنى لم أكن أريد أن أتوقف . ولأن الناس فى تلك الأراضى كان يمكن أن يتعرفوا علي . فقد أرحت رأسى قليلا تحت شجرة زيتون على جانب الطريق . وأكلت سندوتشا مما معى . ثم انطلقت للأمام مندفعا بالرغبة فى ركوب القطار بمجرد أن تقع عينى عليه . كان الناس ينظرون الى باستغراب ، ربما لمنظرى الذى يشبه الجوال . والاطفال كانوا يتبعوننى فى فضول وأنا أعبر المناطق السكنية مثلما يتبعون المجريين أو الفاشلين . وكانت نظراتهم القلقة وهيئتهم الطفولية ، بدلا من أن تضايقنى تمنحنى شعورا بالصحبة ، ولولا أنى كنت فى ذلك الحين أخشى النساء مثلما أخشى وباء الكوليرا المعدى لتجرأت على أن أنفحهم من بعض الاشياء التى كنت أحملها لنفسى .

وقد لحقت بالقطار فى « دون بينيتو » وهناك طلبت تذكرة

لمدريد ، لا لكي أبقى في العاصمة وإنما لكي استمر في السير إلى أى نقطة أحاول أن أنطلق منها إلى الامريكتين . وقد كانت الرحلة طيبة لان العربة التي ركبت فيها لم تكن حالتها سيئة ، ولأنها كانت بالنسبة لي تنطوى على كثير من التجديد وأنا أرى الحقول تمضي وكأنها في سهل تدفعه يد غير مرئية وعندما نزل كل الناس تحققت من أننا وصلنا إلى مدريد ، وكنت اتصور أننا مازلنا بعيدين عن العاصمة ، لدرجة أن قلبي تحرك من مكانه في صدرى ، وهذا التحرك داخل الصدر بفعل القلب دائما عندما نقابل الشيء المؤكد ، الذى ليس له علاج ، وصار قريبا جدا بعد أن كان شديد البعد على نحو ماكنا نتخيله .

وبما أنى كنت مدركا أن مدريد بها كثير من الصعاليك وبما أننا قد وصلنا ليلا ، وهو وقت ينتشر فيه الأوغاد والمتشردون ويمكن أن يمسكوا بي ، فكرت في أن أفضل طريقة للحماية هي أن أنتظر طلوع النهار حتى أبحث لي عن مكان للإقامة ، والانتظار خلال هذا الوقت فأنام على مقعد من المقاعد الكثيرة التي كانت موجودة في المحطة . وهذا مافعلته ، فقد بحثت عن مقعد في الطرف ، بعيد قليلا عن الصخب الكثير ، واستلقيت عليه بطريقة مريحة قدر الاستطاعة وليس لي من حام إلا الملابس التي أرتديها ، وقد ظللت نائما مثل صخرة . بالرغم من أنني عندما استلقيت فكرت أن أقلد نوم الحجل ، عين مفتوحة وأخرى ترتاح ، نمت بعمق حتى طلوع اليوم الجديد تقريبا ، وعندما استيقظت كان البرد يقرض عظامي وأحسست بالرطوبة في جسمي لدرجة أني ذكرت أن أفضل طريقة هي ألا أتوقف لحظة واحدة بعد ذلك . خرجت من المحطة واقتربت من مجموعة من العمال كانوا مجتمعين حول شعلة نار ، فاستقبلوني استقبالا طيبا وأوسعوا لي مكانا بينهم فاستطعت أن استبدل ببرد الجلد حر اللهيب . أما الحديث الذى كان يبدو في البداية شبه محتضر فقد انتعش بسرعة ، وبما أن

هؤلاء الناس كانوا يبدون لى ناسا طيبين ، وكان كل ما أحتاج اليه في مدريد هو الاصدقاء فقد طلبت من ولد صايع كان بالقرب منا أن يشترى لي لترا من النبيذ ، وهو لتر لم أذق منه جرعة واحدة ولم يذق منه هؤلاء الذين كانوا معي شيئا لأن الولد ، الذي لابد انه كان يعرف أكثر من « لبي » ، أخذ النقود ولم نره بعد ذلك أبدا . وبما أن فكرتي كانت تتمثل في أن أهديهم أي شيء ، [illegible] من أنهم ظلوا يضحكون على عملية الولد هذه ، فقد [illegible] كثيرا أن أعقد صداقات معهم . انتظرت حتى طلع النهار ، وبسرعة لا أدري كيف حدثت ، ذهبت معهم إلى أحد [illegible] يدفعون لكل واحد منهم ثمن طاس قهوة باللبن أدى إلى [illegible] أصبحوا إلى [illegible] وكانوا لى من الشاكرين . تحدثت معهم عن [illegible] مكان للاقامة فعرض على أحدهم - ويسمى آنخل استيبيس - أن أنزل في بيته ويقدم لي وجبتين في اليوم ، وكل هذا بعشر بيزيتات ، وهو سعر لم يبد لي للوهلة الأولى غاليا لكن الذي حدث هو أنني طوال اقامتي في مدريد وفي بيته ، وجدت هذه البيزيتات العشرة تزيد عشرة أخرى على الأقل في اليوم [illegible] استيبيس كان يكسبني كل ليلة في لعبة السبعة ونصف التي كان يلعبها هو وزوجته .

لم أمكث في مدريد أياما كثيرة ، إذ لم تبلغ الخمسة عشر يوما وهي الوقت الذي قضيته هناك خصصته للتسلية بأقل ثمن يمكن أن أدفعه ولشراء بعض الأشياء البسيطة التى كنت أحتاج اليها ، وقد وجدت سعرها معقولا في شارع بوستاس ، وفي الميدان الكبير ، وفي المساء ، عند غروب الشمس ، كنت أذهب لأصرف بيزيتة واحدة في مقهى به غناء في شارع الجمارك - كان يطلق عليه إيدن كونسرت - وهناك أظل أشاهد الفنانات حتى ساعة تناول العشاء - وبعد ذلك أمضى الى غرفة السطح عند استيبيس ، في شارع لاترنيرا . وعندما أصل الى البيت كانت

الأمور تمضي بشكل منتظم ، الزوجة تسحب الشواء ، نأكله ، وبعد ذلك نبدأ في لعب الكوتشينة بصحبة اثنين من الجيران يصعدان كل ليلة ، فنتحلق بجوار السرير ، وأرجلنا ممدودة جيدا بالقرب من جذوات النار المشتعلة ، ونظل كذلك حتى الفجر .

وقد بدت لي تلك الحياة مسلية ، ولولا انى كنت قد عزمت عزما أكيدا على ألا أعود الى القرية لبقيت في مدريد الى أن أستنفد آخر مليم في جيبي .

كان بيت مضيفي يبدو مثل برج الحمام ، عالي السقف كما هو واضح ، لكن بدا أنهم لم يكونوا يفتحونه حتى ولو للعمل المعروف والجذوات تظل مشتعلة به ليلا ونهارا ، فإنه لم يكن سيئا وأنا أجلس حواليه ورجلاى تحت سطح الطاولة . أما الحجرة التي خصصوها لي فكان في سقفها انحناء في الجزء الذي وضعت فيه الحشية (المرتبة) وقد ظللت أكثر من مرة حتى تعودت ، أفاجأ برأسي تخبط في جزء ناتىء لم أنتبه أبدا الى أنه كان موجودا هناك ، وبعد ذلك عندما ألفت الدخان انتبهت الى الاشياء الداخلة والخارجة في الحجرة حتى أنني صرت قادرا على أن أتوجه ، مغمض العينين ، الى السرير . كل شيء يأتي حسب العادة .

أما امرأته ، واسمها ، كونتيبثيون كاستيلو لوبيث حسبما ذكرت لي هي نفسها ، فقد كانت صبية ، دقيقة الجسد ، ووجهها يحمل ملامح صعلكة تجعل منها أليفة ومزهوة وسريعة الخاطر على النحو الذى اشتهرت به بنات مدريد كانت تنظر الى في وقاحة ، وتتحدث معي عن أى شيء ، لكنها بسرعة أظهرت لي بمجرد أن اختبرتها حتى تظهر لي ذلك - أنها لايمكن أن ينتظر منها شيء . كانت تهيم حبا بزوجها ، وكانت لاترى في الدنيا رجلا إلا هو ، كانت جميلة وجذابة على النحو الذى لايوجد عند الكثيرات بالرغم من أنها كانت تبدو لي مختلفة عن نساء قريتي ،

ولكن بما أنها لم تعطني على الاطلاق فرصة لأى شيء ، وأنا من جهة أخرى كنت فى حالة جبن فقد تحررت أمام ناظرى وكبرت حتى جاء يوم صارت بعيدة تماما عن نظرى حتى لم أعد أفكر فيها على الاطلاق ، كان الزوج غيورا مثل سلطان ، ويبدو أنه لم يكن يثق كثيرا في زوجته لأنه لم يكن يتركها تطل على السلم ، ومازلت أذكر ما حدث ذات يوم . وكان يوم أحد مساء ، أن فكر استيبيس فى أن نقوم بجولة فى حدائق الريتيرو ، نحن الثلاثة هو وزوجته وأنا ، وقد ظل طوال الوقت يراقبها ليرى هل تنظر إلى هذا الشخص أو ذاك ، أو هل تترك نفسها لكي ينظر إليها هذا أو ذاك ، والعجيب أن هذه الاشياء كانت تتحملها زوجته وهى راضية تماما ، بل إنها ردت عليه بحركة ملاطفة في وجهه ، جعلتني شارد اللب لأني لم أكن أنتظر أن يحدث هذا . وقد تجولنا فى حدائق الريتيرو ودرنا عدة دورات فى الممر الواقع بجوار البركة . وفى احدى هذه الدورات دخل استيبيس في حوار صارخ مع آخر كان يمر من هناك ، كان الحوار يتم بسرعة وتستخدم فيه كلمات منتقاة بعناية حتى أنى لم أستطع أن اقتنص من هذه الكلمات إلا أقل من نصفها ، كانا يتشاجران لأن الآخر ، فيما يبدو كان قد ألقى نظرة على كونثيبسيون ، ولكن الذى مازلت أندهش له حتى الآن هو أنه مع كل هذه الشتائم التى انطلقت بها حنجرة كل منهما لم تحدث أية اشارة باليد . لقد سب كل منهما للآخر أمه ، واستخدما الفاظا مثل « سوقى » و « ديوس » . وحدثت تهديدات بأكل الكبد وخلافه ولكن الشيء الغريب جدا هو أن لا أحد منهما لمس شعرة من الآخر ، وأنا كنت مفزوعا وأنا أرى هذه العادات غير الشائعة ، لكنى بالطبع ، لم أتدخل ، وإن كنت قد هيأت نفسى للتدخل فى حالة ما اذا اضطررت للدفاع عن صديقي . وعندما أحسا بالملل من هذه الشتائم المتبادلة مضى كل منهما لحال سبيله ولم يحدث شيء

شيء طيب ! لو أننا نحن رجال الريف لدينا طول البال هذا الذى عند أهل المدن لاصبحت السجون خالية مثل الجزر .

وبعد أسبوعين ، وقبل أن اتعرف على مدريد جيدا ، فهذه ليست مدينة يمكن أن تتعرف عليها من موقع طائر ، قررت أن أستأنف الرحلة الى حيث كنت قد حددت هدفى ، فأعددت مابقى لى من متاع قليل فى حقيبة صغيرة اشتريتها لهذا الغرض ، وحجزت بطاقة للسفر بالقطار . وبصحبة استيبيس الذى لم يتركنى لآخر لحظة ، توجهت الى المحطة ـ وكانت محطة أخرى مختلفة عن المحطة التى جئت منها ـ وبدأت الرحلة الى لاكورونيا ، وكانت ، كما ذكر لى ، نقطة عبور البواخر التى تتوجه الى الامريكتين . كانت الرحلة حتى الميناء أبطأ بقليل من الرحلة من القرية إلى مدريد نظرا لبعد المسافة ولكن لأنى قضيت الليل بالداخل ، ولست ممن تمنعهم حركة القطار وضجيجه من النوم ، فقد مر الوقت بأسرع مما كنت اتصور وأيقظنى جيران الرحلة . وبعد ساعات قليلة من استيقاظى وجدت نفسى على شاطىء البحر ، وهذا شيء من الاشياء التى فنيت فيها فى هذه الحياة ، لما ينطوى عليه من عظمة وعمق .

وعندما سويت بعض موضوعاتى البسيطة الأولى أدركت جيدا كم كنت ساذجا وانا أعتقد أن مجموعة الميزيتات التى أحضرتها فى جيبى كانت تكفينى للوصول الى أمريكا فلم يحدث قبل ذلك على الاطلاق أن فكرت فى أن الرحلة بالبحر يمكن أن تكلفنى غاليا ! ذهبت الى وكالة السفر ، وسألت فى أحد الشبابيك ، فأرسلونى للسؤال فى شباك آخر ، انتظرت فى طابور استغرق ثلاث ساعات على الأقل ، وعندما اقتربت من الموظف وبدأت أسأله عن أى الطرق أنسب لى ، وكم من النقود سأتكلف ، وجدته ، دون أن ينبث بكلمة ، يدور نصف دوره ، لكى يعود على أنامله وورقة فى يده .

- الطرق .. التعريفات .. مواعيد الخروج من لاكورونيا يومى ٥ و ٢٠ .

وحاولت ولكن بدون جدوى . فقد قاطعنى فى لهجة جافة تركتنى شاردا .

- لاتلح .

ومشيت بطرقى وتعريفاتى ، محتفظا فى الذاكرة بيومى الخروج . هل هناك وسيلة أخرى !

وفى البيت الذى نزلت به كان يقيم أيضا صول فى سلاح المشاة تطوع لكى يفك لى ماهو موجود فى الأوراق التى أعطوها فى الوكالة ، وعندما كلمنى عن السعر وعن شروط الدفع سقطت روحى عند رجلى بعد أن حسبت أنى لا أمتلك نصف هذا المبلغ ، وهذه المشكلة التى عرضت أمامى لم تكن صغيرة فضلا عن أنى لم أعثر لها على حل . أما الصول الذى كان يدعى أدريان نوجيرا فقد أخذ يشجعنى وهو أيضا كان هناك - حدثنى كثيرا عن لاهابانا . وحتى عن نيويورك . وأنا - ولماذا أخفى ذلك ؟ كنت أسمع له فى ذهول وفى حالة من الغبطة لم تحدث لى أبدا تجاه أحد غيره . ولكنى بعد أن رأيت أن الشىء الوحيد الذى كنت أكسبه من حديثه هو استطالة أسنانى . فقد رجوته ذات يوم ألا يستمر فى هذا الحديث لأن موضوع بقائى فى البلد أصبح أمرا لامناص منه . وقد وجدت وجهه ينقلب على نحو لم أعهده فيه من قبل . ولكن بما أنه كان رجلا عاقلا ومحافظا مثل كل أهل جليقية (منطقة فى شمال غرب اسبانيا - المترجم) لم يعد إلى الحديث مرة أخرى فى هذا الموضوع .

أما رأسى فقد صارت مثل المطحونة من كثرة التفكير فيما ينبغى على أن أفعله ، وبما أن أى حل لايتضمن العودة الى القرية كان يبدو لى مقبولا ، فقد حاولت أن أتأقلم مع الظروف بشتى الطرق ، قمت بتحميل الحقائب فى المحطة ، والطرود على

الميناء ، وساعدت فى أعمال الطبخ فى فندق السكك الحديدية ، واشتغلت حارسا ليليا لفترة فى مصنع تبغ ، وأخذت من كل شىء بطرف حتى انقضى وقتى فى هذا الميناء البحرى وأنا أعيش فى منزل أباتشا ، فى شارع الهدهد ، يسارا حيث خدمت فى كل شىء ، بالرغم من أن عملى الاساسى كان يقتصر على أن أقوم بطرد هؤلاء الذين يلاحظ عليهم أنهم لايجيدون إلا إثارة الفتن .

وهناك مكثت حوالى عام ونصف العام ، وإذا أضفنا هذه المدة إلى نصف العام الذى قضيته متجولا فى العالم وبعيدا عن بيتى فأن هذا يجعلنى أتذكر مرارا كيف صرت أعتقد فيما تركته هناك ، فى البداية كان ذلك يحدث خلال الليل فقط ، عندما أستلقى على السرير الموضوع لى فى المطبخ - ولكن شيئا فشيئا ، أخذ التفكير يمتد لساعات وساعات حتى جاء يوم صار فيه الحنين - كما يطلقون عليه فى لاكورونيا (يستخدم الكاتب كلمة خاصة بأهل هذا البلد - المترجم) يغزونى لدرجة أنى وجدت نفسى فجأة فى كوخ على الطريق الزراعى . فكرت أنى لابد وأن أستقبل استقبالا طيبا من جانب أسرتى - فالزمن يعالج كل شىء وكبرت هذه الرغبة فى نفسى مثلما يكبر عش الغراب فى وسط الرطوبة . اقترضت بعض النقود ، وقد كلفنى هذا بعض الجهد ، ولكنى حصلت عليها ، مثل كل شىء ، ببعض الاصرار ، وذات يوم ، بعد أن ودعت كل حماتى ، وعلى رأسهم لاأباتشا ، بدأت رحلة العودة هذه الرحلة التى كان يمكن أن اشير اليها بكلمة سعيدة لولم يتدخل الشيطان بدسائسه فى بيتى - وهو شىء لم أكن أعرفه فى ذلك الحين - ويوسوس لامرأتى خلال فترة غيابى - والواقع أنه من الطبيعى جدا أن تتأثر زوجتى كثيرا ، وهى الشابة والجميلة فى ذلك الحين ، بغياب الزوج خاصة وأن حظها من التعليم كان قليلا . إنه هروبى ، خطيئتى الكبرى ، التى لم يكن ينبغى أن أرتكبها أبدا ، والتى أراد الله أن يعاقب عليها ، من يعرف ، ولو بقسوة ...

مرت سبعة أيام بعد عودتي . عندما قامت زوجتي ، التي كانت قد استقبلتني ببرود كبير ، على الأقل في الظاهر ، بقطع تيار أحلامي لتقول لي :

ـ أظن أني استقبلتك ببرود شديد

ـ كلا . يا امرأة

ـ لأني لم أكن أنتظرك . هل تعرف ؟ إذ لم أتصور أن أراك عائدا

ـ لكنك الآن فرحة . أليس كذلك ؟

ـ بعد ... الآن أنا فرحة

كانت لولا [illegible] ... و[illegible] تغيير كبير في كل شيء .

ـ هل ستتركني ثانية ؟

ـ [illegible] من أجل [illegible] أن [illegible] ؟

وعادت أفكاري [illegible] مرة أخرى

ـ سنتان وقت كثير

ـ كثير .

ـ وفي سنتين القمر يعطي دورات كثيرة

ـ سنتان . قال لي ذلك أحد البحارة في لاكورونيا !

هكذا جزنت صوتها لتقول لي هذا . وكانت نظرتها مثل غابة من الظلال .

ـ دورات كثيرة !

ـ كثيرة !

ـ والواحدة تفكر : في سنتين ما الذي نفتقر إليه . الله هو الذي أخذه .

- ماذا تودين أن تقولي ؟
- لا شيء !
وأجهشت لولا بالبكاء في مرارة . وبخيط من صوت اعترفت لي :
- سوف يكون لي ولد .
- ولد آخر ؟
- نعم
أما أنا فقد أصبت بالذعر
- ممن ؟
- لا تسأل !
- كيف لا أسأل . أنا أريد أن أسأل . أنا زوجك !
فاطلقت صوتها :
- زوجي الذي يريد أن يقتلني ! زوجي الذي تركني عامين طويلين ! زوجي الذي يهرب مني وكأنني مصابة بالبرص ! زوجي .
- لا تسخري !
نعم : كان من الأفضل ألا تسخر . فقد أنبني ضميري بذلك . كان من الأفضل أن أدع الوقت يمر ، وأن يولد الطفل ... ولعل الجيران بدءوا يتحدثون عن مغامرات زوجتي . ولعلهم أخذوا ينظرون إلى في حذر ، ويتهامسون بصوت خفيض عندما يشاهدونني أمر ...
- هل تريدين أن أستدعي السيدة إسجراثيا ؟
- لقد رأتني .
- ماذا تقول ؟
- إن كل شيء على مايرام .
- ليس كذلك ... ليس كذلك ...
- ماذا كنت تريد ؟
- لا شيء .... من الأنسب أن نسوي الموضوع فيما بيننا .

وقامت زوجتى بحركة وكأنها تتوسل .

ـ باسكوال . هل لديك القدرة ؟

ـ نعم . يالولا : كل القدرة . وهل سأكون الأول ؟

ـ ياباسكوال : أحس به أكثر قوة من أى جنين آخر ، أحس أنه سوف يعيش ...

ـ من أجل عارى !

ـ أو من أجل سمعتك ، ماذا يعرف الناس ؟

ـ الناس : [illegible] عرفوا

كانت نولا تسعد [illegible] ابتسامة طفل أسيئت معاملته . تجرح النظر

ـ من يدرى [illegible] لا نجعل الناس تعرف !

ـ ولكن [illegible] يعرفون .

لم أكن أحتمل [illegible] خبر مخلصين ـ ولكن المرء مربوط بسلاسل [illegible]

فلو أن [illegible] لسامحت ، ولكن العالم على [illegible] الرغبة فى التقدم ضد التيار ليست إلا محاولة غير مجدية

ـ لعل من الأفضل أن [illegible]

ـ السيدة [illegible]

ـ نعم

ـ كلا . والله [illegible] آخر ؟ هل الوضع دائما بهدف الوضع هو بمثابة تربية [illegible] ؟

وعندئذ ارتمت على الأرض حتى قبّلت رجلىّ .

ـ أعطيك حياتى كلها ، إذا طلبتها منى !

ـ لا أريدها فى شيء .

ـ وعيناى ودمى ، لأنى أهنتك !

ـ ولا هذا .

- صدري ، وخصلات شعرى ، وأسنانى ! أعطيك كل ما تريد : لكن لا تأخذه منى ، فأنا أعيش من أجله !

كان من الأفضل أن أتركها تبكى ، تبكى طويلا ، حتى تسقط مستسلمة ، محطمة الأعصاب ، لكن أكثر هدوءا ، وأكثر تعقلا .

أما أمى البائسة التى لابد أنها كانت سببا فى كل الأحداث الماضية ، فقد ظلت مثل هاربة ولم تظهر أمام ناظرى . إن حرارة الحقيقة تجرح كثيرا ! لم تتكلم معى إلا أقل الكلمات الممكنة ، وكانت خارجة من أحد الأبواب عندما كنت أنا أدخل فى آخر ، وكانت قد أعدت لى الطعام فى الوقت المعتاد - وهو شىء لم يحدث من قبل ولا أظن أنه سوف يحدث بعد ذلك -. إنه لمن المؤسف أن نتصور أنه لكى نمضى فى سلام لابد من التزام جانب الخوف !، كانت تظهر هذه الوداعة فى كل حركاتها ، حتى أنى بدأت أتحير تجاهها . ولم أرد أبدا أن أتكلم معها عن موضوع لولا ؛ ذلك لأن الأمر كان يخص كلينا وحدنا ، وأنه كان لا يمكن حله إلا بالاتفاق فيما بيننا .

وذات يوم ناديت لولا لكى أقول لها :

- يمكن أن تكونى مطمئنة .

- لماذا ؟

- لأنه لا ينبغى لأحد أن يستدعى السيدة إنجراثيا .

ظلت لولا لحظة تفكر ، مثل مالك الحزين .

- أنت طيب جدا ، ياباسكوال .

- نعم ؛ أفضل مما تظنين .

- وأفضل مما أنا عليه .

- لا ينبغى أن نتحدث عن هذا ! مع من حدث هذا ؟

- لا تسأل عن ذلك !

- أفضل أن أكون على علم بالأمر ، يالولا .

- ولكنى أخاف أن أقوله لك .

- أتخافين ؟

- نعم ؛ من أن تقتله .

ـ هل تحبينه هكذا كثيرا .
ـ لا أحبه .
ـ إذن ؟
ـ ذلك أن الدم يبدو وكأنه ضمان حياتك ...
هذه الكلمات ظلت مسجلة فى رأسى وكأنها من نار ، وبما أنها مسجلة بالنار فسوف تموت معى .
ـ وإذا أقسمت لك أنه لن يحدث شىء .
ـ لن أصدقك .
ـ لماذا ؟
ـ لأن هذا مستحيل ، ياباسكوال ، أنت رجل بكل معنى الكلمة .
ـ شكرا لله ؛ ولكن مازالت لدى كلمة .
وألقت لولا نفسها بين ذراعى .
ـ أنا على استعداد لأن أقدم سنوات من حياتى فى مقابل ألا يحدث شىء .

ـ أنا أصدقك .
ـ وفى مقابل أن تسامحنى !
ـ أسامحك ، يالولا . ولكن سوف تقولين ...
ـ نعم .
كانت شاحبة على نحو لم يحدث من قبل ؛ وغير متماسكة ؛ أما وجهها فيبعث على الخوف ، خوف فظيع من أن تعود لها المصائب مع عودتى ؛ تناولت رأسها ، داعبتها ، كلمتها بود أكثر مما يستخدمه الزوج الشديد الوفاء ؛ أسندتها على كتفى ، وأنا مدرك لمبلغ ما تعانى ؛ وكأنى أخشى أن أراها وقد أغمى عليها من سؤالى .
ـ من هو ؟
ـ أبو شداد !
ـ أبو شداد ؟

لم ترد لولا .

كانت ميتة ، وقد مالت رأسها على صدرها ، وانسدل شعرها على وجهها ... ظلت لحظة في حالة توازن ، جالسة حيث كانت ، ثم سقطت فجأة على أرض المطبخ . التي كانت كلها عبارة عن حصوات واطئة جدا .

تقلب عش من العقارب في صدري ، وفي كل قطرة من دماء أوردتي ، حية تمارس العض في لحمي .

خرجت أبحث عن قاتل زوجتي ، عن مدنس أختي ، عن الرجل الذي ملأ جنبيّ بالمرارة : وقد بذلت جهدا حتى عثرت عليه شاردا كعادته . لقد علم الوغد بوصولي ، فوضع بيننا مسافات ، ولم يظهر طوال أربعة شهور في ألمندراليخو : ولكني خرجت للبحث عنه ، فذهبت إلى بيت نيفيس ، رأيت روساريو ... كم تغيرت ! بدت عليها علامات الشيخوخة . حيث امتلأ وجهها بالتجاعيد السابقة لأوانها ، وقد حال لون الأذنين إلى السواد والشعر ذابل : كان النظر إليها يبعث على الأسى ، بعد أن كانت جميلة .

- جئت تبحث عن ماذا ؟
- جئت أبحث عن رجل !
- قليل الرجولة من يهرب من عدوه .
- أجل ...
- وقليل الرجولة من لا يترقب زيارة منتظرة .
- أجل ... أين هو ؟
- لا أدري : خرج بالأمس .
- إلى أين خرج ؟
- لا أدري .
- ألا تدرين ؟
- بلى .

- هل أنت متأكدة ؟
- مثلما أنا متأكدة أننا الآن فى ساعة من نهار .
بدا أنها كانت تتكلم صدقا : فقد أظهرت لى روساريو عطفها عندما عادت إلى البيت ، لكى تعتنى بى . وتركت أبا شداد .
- أتعرفين هل ذهب إلى بعيد ؟
- لم يقل لى شيئا .

ولم يعد هناك من حل أمام المرء إلا أن يدفن عفريته : ويدفع من تعاسته فى مقابل الغضب الذى نحتفظ به تجاه الأوغاد . لم يكن هذا أبدا من شيم الرجال .
- هل كنت تعرف ما حدث ؟
- نعم .
- ومع ذلك ظللت صامتا ؟
- لمن كان ينبغى علىَّ أن أحكيه ؟
- لا أحد ...
والحق أنه لم يكن هناك أحد أرى ما يدفعنى إلى أن أحكى له : هناك أشياء لا تهم الناس كلهم ، أشياء يتحملها الإنسان بمفرده ، مثل صليب الاستشهاد ، ويحجبها عن الآخرين . فلا يمكن أن نحكى للناس كل ما يحدث لنا ، لأنهم فى أغلب الحالات لن يعرفوا كيف يفهموننا .
وقد عادت روسا معى .
- لا أريد أن أبقى هنا يوما واحدا بعد ذلك : أنا متعبة .
وهكذا عادت إلى البيت ، خجولة ، وشبه منطوية ، متواضعة وشغالة على نحو لم أره عليها أبدا من قبل : كانت تعتنى بى عناية فائقة لم أعرف أبدا - أى !، وهذا هو أسوأ ما فى الموضوع - ولن أعرف كيف أشكرها عليها بما فيه الكفاية . كانت تعد لى دائما قميصا نظيفا ، وكانت تجهز لى الحجرات بأفضل ما يكون التجهيز ، وتحتفظ لى بالطعام ساخنا حتى ولو تأخرت ...

شيء طيب أن يعيش المرء هكذا ! كانت الأيام تمضى خفيفة مثل الريشة : والليالى ساجية وكأنى فى دير ، والأفكار المشئومة ـ التى كانت تطاردنى فى أوقات أخرى ـ بدت وكأنها تريد أن تزايلنى . كم هى بعيدة تلك الأيام السوداء فى لاكورونيا ! وكم أصبح تائها فى الذاكرة زمن الطعنات ! وذكرى لولا ، التى تركت جرحا عميقا فى قلبى ، أخذت تتلاشى ، والأيام الماضية مضت شيئا فشيئا نحو عالم النسيان ، حتى أرادت النجمة الشريرة ، هذه النجمة الشريرة التى كان يبدو أنها موكلة بمطاردتى ، أرادت أن تبعث هذه الأيام من أجل سوء حظى .

كان فى حانة مارتينيت : هذا ما قاله لى السيد سيباستيان .

ـ هل رأيت أبا شداد ؟

ـ كلا ، لماذا ؟

ـ لا شيء : يقولون إنه موجود فى القرية .

ـ فى القرية ؟

ـ هذا ما يقال .

ـ لعلك تريد أن تخدعنى ! ؟

ـ يارجل !، لا تغضب هكذا : بما أن هذا قد قيل لى ، فأنا أقول لك : ما الذى يدعونى لأن أخدعك ؟

ولم أجد وقتا لأتحقق مما كانت تحمل كلماته من صدق . خرجت أجرى متوجها إلى بيتى : كنت أنطلق مثل الشرارة ، دون أن أنظر حتى فى موضع قدمىّ . وقد قابلت أمى عند الباب .

ـ وروساريو ؟

ـ موجودة بالداخل .

ـ وحدها ؟

ـ نعم ، لماذا ؟

لم أرد : دلفت إلى المطبخ ، وهناك وجدتها تقلب القدْر .

ـ وأبو شداد ؟

بدت روساريو وكأنها تقفز : رفعت رأسها ، وبهدوء ، على الأقل في الظاهر ، قالت :
- لماذا تسألني عنه ؟
- لأنه موجود في القرية .
- في القرية ؟
- هذا ما قيل لي .
- إذن فهو لم يقترب من هنا .
- هل أنت متأكدة ؟
- أقسم لك بذلك !

لم أكن في حاجة إلى أن تقسم لي : كان هذا صحيحا ، فحتى تلك اللحظة لم يكن قد وصل . وإن كان لابد أن يصل خلال لحظة قصيرة ، "منفوشا" مثل ملك السيوف ، متلألئا مثل فرعون .

وقد تقابل مع أمي على الباب :
- باسكوال هنا ؟
- من أجل ماذا تريده ؟
- لا شيء : كي نتحدث عن موضوع .
- عن موضوع ؟
- نعم : عن موضوع متعلق بنا نحن الاثنين .
- إدخل . تجده هناك في المطبخ .

دخل أبو شداد متخفيا ، وهو يترنم بمقطع من أغنية .
- مرحبا ، ياباسكوال !
- مرحبا ، ياباكو ! اكشف عن نفسك ، فأنت في بيت .

كشف أبو شداد عن نفسه .
- طالما أنت تريد ذلك !

كان يريد أن يظهر هادئا رابط الجأش ، لكنه لم يستطع أن يكون كذلك : فقد لوحظ عليه توتر الأعصاب والارتباك .
- مرحبا ، روساريو !
- مرحبا ، باكو !

ابتسمت له أختي ابتسامة جبانة أصابتني بالقرف : وكان هو أيضا يبتسم ، لكن فمه عند الابتسام كان يبدو وكأنه فقد لونه .
- أتعرف لماذا أتيت ؟
- قل أنت .
- لكي آخذ روساريو !
- كنت أتخيل ذلك . ياأبا شداد ، إن روساريو لن تأخذها أنت .
- أنا لن آخذها ؟
- نعم .
- ومن سوف يمنعني من ذلك ؟
- أنا .
- أنت ؟
- نعم ، أنا ، أم أني أبدو لك شيئا هينا ؟
- ليس كثيرا ...
في تلك اللحظة كان باردا مثل غطاءة ، وقد استطعت أن أقيس جيدا المدى الذي بلغته أفعالي . فحصت قوتي ، وقست المسافات ، ودون أن أتركه يواصل الكلام حتى لا يحدث مثلما حدث المرة السابقة ، وجهت له ضربة قوية جدا في منتصف وجهه ، ثم طرحته على ظهره عند طرف المدخنة فصار مثل الميت . حاول أن يستجمع قوته ، وأخرج السكين من غمده ، وبدا وجهه مثل النيران المرعبة : كانت عظام ظهره مكسورة فلم يستطع أن يتحرك . أمسكت به ، وألقيته على حافة الطريق الزراعي ، وتركته .
- ياأبو شداد ، لقد قتلت زوجتي ...
- لم تكن إلا ثعلبة .
- أيا كانت ، ولكنك قتلتها . ودنست شرف أختي ...
- كانت مدنسة تماما عندما أخذتها !
- لعلها كانت مدنسة ، ولكنك أغرقتها ! ألا تريد أن تلتزم الصمت ؟ لقد بحثت عني في كل مكان حتى وجدتني : أنا لم أرد

أن أجرحك ، أنا لم أرد أن أكسر ضلوعك ...

ـ سوف تُشفى ذات يوم ، وهذا اليوم !

ـ هذا اليوم ، ماذا ؟

ـ سوف أفرغ فيك رصاصتين مثل كلب عقور !

ـ لاحظ أنك الآن تحت رحمتى !

ـ لن تعرف أنت كيف تقتلنى !

ـ ألن أعرف كيف أقتلك ؟

ـ بلى .

ـ لماذا تقول هذا ؟ تحس بأنك متأكد من نفسك جدا !

ـ لأنه حتى الآن لم يولد الشخص !

كان الفتى شجاعا .

ـ أتريد أن تمضى إذن ؟

ـ سوف أمضى عندما أريد !

ـ وسيكون ذلك الآن حالا !

ـ أعد لى روساريو !

ـ لا أرغب فى ذلك !

ـ أعدها ، وإلا قتلتك !

ـ لم يبق إلا القتل ! انظر إلى نفسك كيف أنت الآن !

ـ ألا تريد أن تعطينى إياها ؟

ـ كلا !

وحاول أبوشداد ، بعد أن بذل جهدا قويا ، أن يطرحنى جانبا . أمسكته من رقبته وألقيته على الأرض .

ـ أخرج من هنا !

ـ لا أريد !

تدافعنا ، فطرحته على الأرض ، ووضعت ركبتى على صدره ثم اعترفت له :

- أنا لم أقتلك لأنى أخذت على نفسى عهدا بذلك ...
- مع من ؟
- مع لولا .
- إذن ، هل كانت تحبنى ؟

كان هذا التبجح يفوق الحد . ضغطت عليه بقوة أكثر قليلا . وكانت عظام صدره تصدر صريرا يشبه صرير السفود (الشواية) ... بدأ يقىء دما من فمه . وعندما نهضت من عليه كانت رأسه قد التوت - بدون قوة - فى أحد الجوانب ...

- ١٧ -

ظللت ثلاث سنوات محبوسا ، ثلاث سنوات بطيئة ، وطويلة مثل المرارة ، لدرجة أنى إذا كنت قد اعتقدت فى البداية أنها لن تمر أبدا ، فقد رأيت بعد ذلك أنها كانت حُلما : ثلاث سنوات وأنا أعمل ، بشكل متواصل ، فى ورشة إسكافى السجن : وأعرّض نفسى ، فى فترات الراحة ، لشمس الفناء ، هذه الشمس التى كانت تروق لى كثيرا : وأنا أرى الساعات تمضى وتحمل معها روحى المشتاقة ، تلك الساعات التى أوقف عدُّها قبل الأوان - لسوء حظى - سلوكى الطيب .

ومما يثير الأسى أن المرات القليلة التى لم يحدث أن تصرفت فيها على نحو شديد السوء ، فى هذه الحياة ، وجدت أن هذا الحظ السيىء ، وهذه النجمة الشريرة ، التى تحدثت عنها فيما سبق ، تبدو وكأنها تسعد بصحبتى ، فتلوى الأشياء وتوجهها بصورة تجعل الطيبة بمنأى عن روحى أو قل حتى تمضى الأمور فى طريق اللعنة . بل إن هناك ماهو أسوأ : إنها لا تجعلها بمنأى فقط وإنما تنحرف بها وتدفعنى دائما إلى ارتكاب أكثر الأشياء سوءا . ولو أنى سلكت سلوكا سيئا لبقيت فى سجن شينشيلا CHINCHILLA الثمانية وعشرين عاما التى كانت محددة لى ، ولتعفنت حيا مثل كل المساجين ، ولأصابنى الملل حتى الجنون ، واليأس ، ولصرت ملعونا فى كل كتاب مقدس ، ولانتهى بى الأمر إلى أن يُسمم كل شىء فىّ ، لكنى كنت هناك أتطهر مما ارتكبته ، وأتحرر من جرائم دم جديدة ، سجينا وأسيرا - هذا صحيح - ولكن رأسى مرفوعة على كتفىّ مثلما ولدت ، متحررا من كل ذنب ،

وإن لم يكن الخطيئة الأصلية : ولو أني سلكت سلوكا لا له ولا عليه مثل الجميع ، لخفضت الثمانية والعشرين عاما إلى أربعة عشر أو ستة عشر عاما ، ولماتت أمي موتة طبيعية قبل أن أخرج من السجن ، ولفقدت أختي روساريو شبابها ، ومع شبابها جمالها ، ومع جمالها خطرها ، وأنا - هذا الانسان البائس ، هذا المهزوم السيىء الحظ الذى ليس قادرا على أن يثير فيك وفي المجتمع بعض الشفقة تجاهه - أقول وأنا كنت خرجت وديعا مثل شاة ، ناعما مثل بطانية ، وربما بعيدا عن خطر الوقوع في سقطة جديدة . ولو أني كنت أعيش مطمئنا لعلي في هذه الساعات كنت في أي مكان متخصصا في عمل أكل منه ، وأحاول أن أنسى الماضي حتى لا أنظر إلا إلى ما هو آت : وربما كنت وصلت إلى ذلك فعلا ... وعلى كل حال فقد تصرفت بأفضل ما استطعت ، وأظهرت وجها طيبا في زمن السوء ، ووفيت ، بزيادة ، ما كان يطلب مني ، واستطعت أن أجعل جانب العدالة لينا ، وحصلت على أفضل تقريرات للمدير ..., فأفرجوا عني : فتحوا لي الأبواب : تركوني بدون دفاع أمام الشرور . قالوا لي :

- لقد وفيت ، ياباسكوال : عد إلى الكفاح ، عد إلى الحياة ، عد لتتحمل الجميع ، ولتتحدث مع الجميع ، ولتحتك مرة أخرى بالجميع .

ومن حيث أرادوا أن يقدموا لي معروفا ، أغرقوني إلى الأبد .

هذه التأملات لم تخطر على بالي للمرة الأولى في هذا الفصل وفي الفصلين التاليين ؛ ولكنها سُرقت مني (وحتى الآن لم أستطع أن أفسر لماذا أرادوا أن يأخذوها مني) ، بالرغم من أن هذا سوف يبدو لك غريبا ولم تصدقني ، وقد جاءتني هذه الأفكار وأنا في حالة حزن ، من جهة ، بسبب هذا الإثم غير المبرر الذى يسبب لي الكثير من الآلام ، وبسبب ضيقي بالتكرار من جهة أخرى ، حتى ليُكرهني على التذكر ، ويضع أمامي الفكرة تلو الفكرة ، وبما أني أعتبر الوقوف ضد الإرادة توبة فكم من مرات

التوبة أستحق من أجل ضعف روحى ، لا من أجل ذنوبى الكثيرة ، وعلى أية حال أيا كانت هذه الأفكار ، فإنى أتركها طازجة مثلما خرجت لى ، حتى تنظر إليها أنت كيفما يروق لك .

وعندما خرجت وجدت الحقول حزينة جدا ، أكثر حزنا مما كنت أتصور . كنت أتصورها خلال الأفكار التى تطوف بذهنى وأنا سجين - وتكهن سيادتك لماذا - خضراء ناضرة مثل المروج ، خصبة وجميلة مثل حقول القمح ، والفلاحون يعملون فيها بجد ، يكدحون فيها بفرح من طلوع الشمس إلى غروبها ، وهم يغنون ، وقربة النبيذ في جانب ، والرأس خالية من الأفكار السوداء ، لكنى وجدتها عند خروجى قاحلة ذابلة مثل المقابر ، خالية من الناس ليس فيها إلا صومعة متنقلة فى اليوم التالى ليوم القديسة ...

أما شينشيلا فهى قرية متواضعة مثل كل قرى منطقة لامانشا ، ترزح تحت كتلة من الأسى العميق ، رمادية وهزيلة مثل كل المناطق السكنية التى لا يعرف فيها الناس كيف يمدون خياشيمهم فى الوقت المناسب ، وأنا لم أبق فيها إلا الوقت الذى احتجت إليه لكى آخذ قطار العودة إلى قريتى ، إلى بيتى ، إلى عائلتى ؛ إلى القرية التى سأعود لأراها مرة أخرى فى نفس المكان ، إلى بيتى الذى يلمع فى الشمس مثل جوهرة ، إلى عائلتى التى ربما تنتظرنى من أجل الكثير ، والتى قد لا تتصور أنى فجأة سأنضم إليها ، وإلى أمى التى لعل الله رقق من طباعها خلال ثلاث سنوات ، وإلى أختى ، أختى الحبيبة القديسة التى ربما تقفز من الفرح عندما ترانى .

تأخر القطار فى الوصول ، تأخر ساعات طويلة . وأنا أستغرب من أن إنسانا يحمل على كاهله ساعات لا حصر لها من الانتظار يلاحظ فى غير صبر هذا التأخر لساعة أكثر أو ساعة أقل ، ولكن المؤكد هو أن هذا ما حدث ، كنت فى غاية القلق ، وكنت أتمزق وأنا أنتظر وكأن مرور الوقت سوف يضيع علىَّ صفقة هامة جدا . مشيت فى المحطة ، ذهبت إلى الكانتين (المطعم) ، عبرت

ميدانا بجوار المحطة ... لا شيء : القطار لم يصل ، القطار لم يطل حتى الآن ، بعيد يسير في الوقت الضائع . تذكرت السجن الذى كان يُرى من بعيد ، خلف مبنى المحطة ؛ كان يبدو صحراء ، لكنه كان ممتلئا حتى الحواف ، يضم بين جدرانه عددا كبيرا من التعساء الذين يمكن أن تملأ مئات الصفحات بأحداث حياتهم . تذكرت المدير ، ففى المرة الأخيرة التى رأيته فيها ، كان عجوزا ، أصلع الرأس ، له شارب أبيض وعينان زرقاوان مثل السماء ؛ كان يسمى السيد كونراد . وكنت أحبه مثل الوالد ؛ وأشعر بالشكر تجاهه لكلمات المواساة الكثيرة التي كان يبثها لى في مراتٍ كثيرة . وآخر مرة رأيته فيها كانت في مكتبه ، إلى حيث استدعانى .

ـ هل تسمح لى ، ياسيد كونراد ؟

ـ ادخل ، يابنى .

كانت السنوات والعلل قد أثرت على صوته ، وعندما كان ينادينا بكلمة يابنى كان يبدو أنها مازالت تزيده لينا ، أو كأنها تسبب له رعشة عندما تخرج من شفتيه . طلب منى أن أجلس على الجانب الآخر من المكتب : قدم لى علبة التبغ ، كبيرة ، من جلد الماعز ؛ وأخرج لنفسه لفة وقدم لى أخرى .

ـ سيجارة ؟

ـ شكرا ياسيد كونراد .

ضحك السيد كونراد .

ـ لكى أتحدث معك من الأفضل أن يكون الدخان كثيرا . وبهذا لا يقع النظر إلا قليلا على وجهك القبيح هذا .

قال ذلك وأطلق قهقهة ، قهقهة اختلطت فى النهاية بنوبة كحة ، نوبة كحة استمرت معه حتى خنقته ، وحتى تركته متورما وأحمر مثل الطماطم . وضع يده فى صندوق وأخرج كوبين وزجاجة كونياك . أما أنا فقد قفزت ؛ دائما كان يعاملنى بصورة طيبة ، هذا صحيح ، ولكن لم يكن أبدا مثل ذلك اليوم .

ـ ماذا حدث ، ياسيد كونراد ؟

- لا شيء ، يابنى ، لا شيء ...، هيا ، اشرب ...، من أجل حريتك !

عاد السعال يهاجمه . وأنا سألته :

- من أجل حريتى ؟

لكنه ألقى إلىّ بإشارات من يده بألا أقول شيئا ، وهذه المرة حدث العكس : فقد انتهى السعال بضحكة .

- نعم . كل المحتالين لديكم حظ !

وأخذ يضحك ، مستمتعا لأنه استطاع أن يقدم لى هذا الخبر ، وسعيدا لأنه استطاع أن يُطلقنى إلى الشارع . مسكين السيد كونراد ، كم كان طيبا ! لو أنه عرف أن أفضل شيء بالنسبة لى هو ألا أخرج من هنا ! وعندما عدت إلى شينشيلا ، إلى ذلك المنزل ، اعترف لى بذلك والدموع تترقرق فى عينيه ، فى هاتين العينين اللتين كانتا أكثر زرقة بقليل من الدموع .

- حسنا ، الآن الأمر جد ! اقرأ ...

وضع أمام عينىّ أمر الإفراج . وأنا لم أكن أصدق ما أراه .

- هل قرأته ؟

- نعم ، ياسيدى .

فتح حافظة ، واستخرج ورقتين متساويتين ، التصريح .

- خذ ، هذا لك : بهذا يمكن أن تذهب إلى حيث تريد . وقع هنا ؛ دون أن تلوث شيئا .

طويت الورقة ، وضعتها فى المحفظة ... كنت حرا ! أما الذى حدث فى داخلى فى تلك اللحظة فلا أعرف كيف أشرحه . ثم ظهرت الجدية على وجه السيد كونراد ؛ فوجه إلىّ خطبة وعظ عن الشرف والعادات الطيبة ، وقدم لى أربع نصائح عن البواعث لو أنى وضعتها أمام عينى من قبل لوفرت على نفسى أكثر من كرب ثقيل ، وعندما انتهى من كلامه ، ولكى تختتم الحفلة ، قدم لى خمسا وعشرين بيزيتة باسم جمعية سيدات إصلاح

المساجين ، وهى مؤسسة خيرية تكونت فى مدريد للعمل على مساعدتنا .

ثم ضرب الجرس فجاء أحد ضباط السجون . ومدَّ لىِ السيد كونراد يده .

ـ وداعا ، يابنى . وليحفظك الله !

لم أكن أملك نفسى من الفرح . واستدار ناحية الضابط .

ـ يامونيوث ، رافق هذا الرجل حتى الباب . وخذه قبل ذلك إلى الإدارة : إن معه ما يكفيه لمدة ثمانية أيام .

أما مونيوث فلم أعد أراه بعد ذلك أبدا طوال أيام حياتى . لكننى رأيت السيد كونراد ، نعم رأيته ، بعد هذا بثلاث سنوات ونصف .

وأخيرا وصل القطار : فكل شىء فى هذه الحياة يصل إن عاجلا أو آجلا ، ماعدا العفو عن المهانين . إذ يبدو أنه ، أى هذا العفو ، يحس بالمتعة فى الابتعاد . ركبت فى الديوان المخصص لى ، وبعد أن ظللت أتنقل من جانب لآخر طوال يوم ونصف اليوم ، وصلت أخيرا إلى محطة القرية ، التى كانت معروفة لى جيدا ، والتى أخذت أفكر فى منظرها طوال الرحلة . ولم يكن أحد ، لا أحد على الإطلاق ، اللهم إلا الله الذى فى الأعالى ، يعرف أنى على وشك الوصول ، ومع ذلك ـ ولا أدرى لماذا تسيطر علىّ أحيانا أفكار غريبة ـ جاءت لحظة تصورت خلالها الرصيف يغص بالناس الفرحين الذين يستقبلوننى وأذرعتهم مرفوعة فى الهواء ، يلوحون بالمناديل ، ويصيحون باسمى فى الجهات الأربع .

وعندما وصلت ، كان ثمة هواء بارد حاد مثل السكين ينغرس فى قلبى . ولم يكن هناك أحد على المحطة . كانت الدنيا ليلا ، ورئيس المحطة السيد جريجوريو ، بفانوسه ذى الفتيلة بلونه الأخضر من جانب والأحمر من جانب آخر ، ورايته المغمدة فى

قلنسوته الصفيح ، قد أعطى منذ قليل أمر التحرك للقطار . والآن لعله يقترب ناحيتى ، سوف يعرفنى ، وسوف يهنئنى .

ـ ماهذا ، باسكوال ! ها أنت هنا !

ـ نعم ، ياسيد جريجوريو ، حر !

ـ كويس ، كويس !

ثم استدار نصف دورة دون أن يعيرنى اهتماما . ودخل مسكنه . وأنا شعرت برغبة فى أن أصيح له :

ـ أنا حر ، ياسيد جريجوريو ! أنا حر ! ، لأنى ظننت أنه لم ينتبه لذلك . لكنى ظللت برهة واقفا ، وامتنعت عن فعل هذا .

كان الدم يضرب عند أذنى والدموع على وشك أن تترقرق فى كلتا عينى . فالسيد جريجوريو لم تهمه حريتى فى شىء .

خرجت من المحطة وحمل العفش على كتفى ، وانحرفت نحو سراط يؤدى إلى الطريق الزراعى الذى يقع عليه بيتى ، دون أن أجد ضرورة للمرور بالقرية ، وبدأت المشى . كنت أمشى حزينا ، حزينا جدا ؛ فكل سعادتى قتلها السيد جريجوريو بكلماته الحزينة ، وبدأ سيل من الأفكار المشئومة ، نذير التعاسة ، يغزو ذاكرتى ، وقد ذهبت محاولاتى للهرب من هذه الأفكار هباء . كان الليل ساجيا ، بدون غيمة واحدة ، والقمر مثل ذبيحة مثبتا فى كبد السماء . ولم أكن أريد أن أفكر فى البرد الذى يغزونى .

وبعد ذلك بقليل ، على يمين السراط ، فى منتصف الطريق تقريبا كانت تقع المقابر ، فى نفس المكان الذى تركتها فيه ، وبنفس السياج من الطوب اللبن الأسود اللون ، وشجرة السرو العالية التى لم تتغير فى شىء ، بقبرَّتها التى تطلق صفيرا بين الأغصان . المقابر التى كان يرتاح فيها أبى من هياجه ؛ وماريو ، من براءته ؛ وزوجتى ، من إهمالها ؛ وأبو شداد من تصرفاته السوقية . المقابر التى تحللت فيها بقايا ولدىّ ، الجنين المجهض وباسكوال الصغير ، الذى كان فى الأحد عشر شهرا التى بلغها يحاكى الشمس .

كنت أحس بالاحتراق وأنا أصل إلى القرية ، هكذا ، وحيدا ، فى الليل ، وأمُرّ أوّلا بجوار الجبّانة ! لقد بدا وكأن القدر كان يسعد بأن يضعها أمامى ، ويجعلها فى طريقى لكى يجبرنى أن أقع فى تأمل ما نحن عليه من قلة شأن !

كان ظلّ جسدى (خيالى) ينطلق دائما للأمام ، طويلا ، طويلا جدا ، مثل شبح ، ملتصقا بالأرض ، ومتواصلا معها ، يمضى تارة مستقيما على الطريق ، وتارة يصعد على سياج المقابر ، وكأنه يريد أن يطل عليها . أخذت أجرى قليلا ؛ والظل يجرى أيضا . توقفت ؛ وتوقف الظل أيضا . نظرت تجاه القبة الزرقاء ؛ ولم يكن هناك سحابة واحدة فى كل الأنحاء . استمر الظل يصحبنى ، خطوة خطوة ، حتى وصلت .

شملنى خوف ، خوف لا يمكن تفسيره ؛ تخيلت الموتى خارجين بهياكلهم العظمية ينظرون إلىّ وأنا مار . لم أجرؤ على أن أرفع رأسى ؛ غذذت السير ؛ كان الجسد يبدو وكأنه فقد ثقله ؛ والصندوق أيضا . فى تلك اللحظة أصبحت أحس بقوة لم أحس بها أبدا من قبل . وجاءت لحظة أخذت أهرول فيها مثل كلب هارب ؛ كنت أجرى ، وأجرى وكأنى مجنون ، أو ممسوس . وعندما وصلت إلى بيتى كنت منهكا تماما ؛ لم أستطع أن أتقدم خطوة أكثر من ذلك ...

وضعت الخُرج على الأرض وجلست عليه . لم نكن نسمع أى ضجة ؛ روساريو وأمى كانتا ، بالتأكيد ، فى عز النوم ، وليس لديهما أى علم بأنى وصلت ، وأنى أصبحت حرا ، على بعد خطوات قليلة منهما . ومن يدرى فلعل أختى كانت قد أدت صلات الإنقاذ ـ وهى الصلاة التى كانت تعجبها كثيرا ـ فى اللحظة التى استلقت فيها على السرير ، من أجل أن يُطلق سراحى ! ومن يدرى فلعلها فى تلك الساعات كانت تحلم ، حزينة ، بتعاستى ، وتتخيلنى ملقى على ألواح الزنزانة ، وذاكرتى متجهة نحوها ، وهى الود الوحيد الصادق الذى كان لى فى حياتى ! ولعلها تقفز

الآن من كابوس ألمَّ بها .
وها أنا أمسيت هناك ، كنت هناك ، حرا ، ومعافى مثل تفاحة ، مستعدا لكى أبدأ من جديد ، لكى أواسيها ، لكى أدللها ، لكى أستقبل ابتسامتها .
لم أكن أدرى ماذا أفعل : فكرت أن أطرق الباب ... ربما يصيبهما الفزع : فلا أحد يطرق الباب فى هذه الساعات . ولعلهما لا تجرؤان على الفتح : لكن ليس من الممكن أيضا أن أستمر هكذا ، وكان من المستحيل أن أنتظر طلوع النهار جالسا على الصندوق .
وعلى الطريق الزراعى لمحت رجلين آتيين يتحدثان بصوت عال : كانا يمضيان فى شرود ، وكأنهما فى حالة سرور : وكانا قادمين من ألمندراليخو ، ومن يدرى فربما لكى يرى كل منهما خطيبته . وقد تعرفت عليهما بسرعة : إنهما ليون ، أخو مارتينيت ، والسيد استيبان . وقد وجدتنى أختبىء : لا أدرى لماذا ، ولكن رؤيتهما فى تلك اللحظة كانت سابقة لأوانها .

مرَّا قريبا جدا من البيت ، قريبا جدا منى : وكان حديثهما واضحا تمام الوضوح .
- هل رأيت ما حدث لباسكوال .
- إنه لم يفعل أكثر مما كان يمكن أن يفعل أى إنسان آخر .
- يدافع عن زوجته .
- طبعا .
- وهو الآن فى شينشيلا . على بعد يوم سفر فى القطار ، وقد قضى جوالى ثلاث سنوات ...
أحسست بفرح عميق : مرّ بى مثل شعاع لتخيلى طريقة الخروج ، لتقديم نفسى لهما ، لأخذهما بالأحضان ...، ولكنى فضلت ألا أفعل ذلك : فقد جعلونى فى السجن أكثر هدوءا ، وأفرغونى من طرق الاندفاع .

انتظرت حتى ابتعدوا . وعندما حسبت أنهما صارا بعيدا بما فيه الكفاية ، خرجت من مخبئي وذهبت إلى الباب . كان الصندوق هناك ؛ لم يرياه . لو أن بصرهما وقع عليه لاقتربا منه ، وصار لزاما عليّ أن أخرج لأفسر لهما هذا الوضع ، ولاعتقدا أني كنت أختفي ، كنت أهرب منهما .

لم أرد أن أفكر في هذا الموضوع أكثر من ذلك ؛ اقتربت نحو الباب وطرقت عليه طرقتين . لم يرد عليَّ أحد ؛ انتظرت دقائق ، لا شيء . عدت أطرق الباب ، هذه المرة بقوة أكبر . في الداخل أضيىء قنديل .

- من ؟ !

- أنا !

- أنت مين ؟

كان هذا صوت أمي . أحسست بالفرح وأنا أسمعها ، لماذا أكذب :

- أنا ، باسكوال .

- باسكوال ؟

- نعم ، ياأمي ، باسكوال !

فتحت الباب ؛ وعلى ضوء القنديل كانت تبدو مثل ساحرة .

- ماذا تريد ؟

- كيف ماذا أريد ؟

- نعم .

- أدخل . ماذا سأريد ؟

كانت غريبة . لماذا تعاملني هكذا ؟

- ما الذي حدث لك ، ياأمي ؟

- لا شيء ، لماذا ؟

- كلا ، لأني أراك شبه متوقفة !

أستطيع أن أؤكد أن أمي كانت تفضل ألا تراني . إن مشاعر الكراهية في الأزمنة الماضية كان يبدو أنها تريد أن تعود لتحبس

فيّ من جديد . كنت أحاول أن أفر منها ، أن ألقى بها جانبا .
- وروساريو ؟
- ذهبت .
- ذهبت ؟
- نعم .
- إلى أين ؟
- إلى ألمندراليخو .
- مرة أخرى ؟
- مرة أخرى .
- مرتبطة ؟
- نعم .
- مع من ؟
- وأنت ماذا يهمك ؟
بدا وكأن العالم يريد أن يسقط على رأسى . لم أكن أرى بوضوح ؛ فكرت هل أنا فى حلم . ظللنا نحن الاثنين لحظة قصيرة صامتين .
- ولماذا ذهبت ؟
- ها أنت ترى !
- لم ترد أن تنتظرنى ؟
- لم تكن تعرف أنك ستأتي . كانت دائما تتحدث عنك ...
مسكينة روساريو ، أى حياة تعسة كانت تعيشها بالرغم من أنها كانت فى غاية الطيبة !
- هل عضكما الجوع ؟
- أحيانا .
- وهل مشت من أجل هذا ؟
- من يدرى !
عدنا للصمت .
- هل ترينها ؟

ـ نعم ؛ تأتى من وقت لآخر . وبما أنه أيضا هنا !
ـ هو ؟
ـ نعم .
ـ من هو ؟
ـ السيد سيباستيان .
أحسست أنى أموت . لقد كنت مستعدا لأن أدفع المال من أجل أن أستمر فى السجن .

جاءت روساريو لترانى عندما علمت بعودتى .

- عرفت بالأمس أنك عدت . لا تدرى كم فرحت !

كم كان يعجبنى سماع كلماتها !

- نعم ، أعرف ، ياروساريو ؛ وأتصور ذلك . وأنا أيضا كانت لدى رغبة فى أن أراك !

كان يبدو وكأننا نؤدى واجبا ، أو كأننا قد تعارفنا منذ عشر دقائق فقط . وكان كل منا يبذل جهدا حتى يخرج الأمر بشكل طبيعى . وقد سألت ، لمجرد السؤال ، بعد برهة :

- كيف عنَّ لك أن تمشى مرة أخرى ؟

- هذا ما حدث .

- هل كنت فى ضيق ؟

- إلى حد كبير .

- ولم تستطيعى أن تنتظرى ؟

- لم أرد .

وتحشرج صوتها .

- لم أرغب فى أن أمر بفواجع أخرى ...

لقد فهمت ؛ المسكينة كانت فى حالة ضيق شديد .

- فلندع الحديث عن هذا ، ياباسكوال .

كانت روساريو تبتسم بسمتها المعتادة ، هذه البسمة الحزينة المكروبة التى تنطبع على شفاه التعساء .

- فلننتقل إلى شىء آخر .. هل تعرف أن عندى لك عروسة ؟

ـ لى أنا ؟
ـ نعم .
ـ عروسة ؟
ـ نعم ، يارجل . لماذا ؟ هل تستغرب ؟
ـ كلا .. يبدو غريبا هذا . فمن التى سوف ترغب فىّ ؟
ـ أية إنسانة . ألست أنا أحبك ؟
كان اعتراف أختى لى بالود ، بالرغم من معرفتى السابقة بذلك ، يسعدنى ؛ وانشغالها بالبحث عن عروسة ، أيضا . وتأمل سيادتك كم هى نكتة !

ـ ومن هى ؟
ـ بنت أخ السيدة إنجراثيا .
ـ أمل ؟
ـ نعم .
ـ فتاة جميلة !
ـ إنها تحبك من قبل أن تتزوج .
ـ لكنها كانت صامتة تماما !
ـ ماذا تريد ، كل واحدة لها طبيعتها !
ـ وأنت ، ماذا قلت لها ؟
ـ لا شىء ؛ أنك ذات يوم لابد أن تعود .
ـ وقد عدت ...
ـ شكرا لله !
إن العروسة التى كانت تحتفظ لى بها روساريو كانت فى الحقيقة امرأة جميلة . لم تكن من نوع لولا ، وإنما على العكس تماما ، شىء هكذا يقع فى المنتصف بينها وبين زوجة استليبيس ، وفيها أيضا ، إذا تحققنا جيدا ، شبه فى النمط من شخصية أختى . كان عمرها فى ذلك الحين يناهز الثلاثين أو الاثنين وثلاثين عاما ، ويبدو عليها أنها شابة ومحافظة بالرغم

من هذا التقدم فى السن الذى لا يلاحظ . كانت متدينة جدا ومتصلة بالتصوف ، وهو أمر غريب فى تلك البلاد ، وكانت تترك نفسها فى مهب الحياة ، مثل الغجر ، وفكرها مركز على شىء واحد تقوله دائما :

- من أجل ماذا نتغير ؟ كل شىء مكتوب !

كانت تعيش فى الربوة مع عمتها ، السيدة إنجراثيا ، أخت أبيها المتوفى من الأب ، لأنها أصبحت يتيمة الأبوين وهى فى سن صغيرة ، وبما أنها كانت معتدة بنفسها وفيها شىء من الخجل ، لم يقل أحد ابدا إنه رآها مع شخص أو سمعها تتناقش ، وخاصة مع عمتها التى كانت تكن لها كثيرا من الاحترام . كانت نظيفة مثل القليلات ، ولونها يشبه لون التفاح ، وعندما صارت بعد فترة قصيرة زوجتى - زوجتى الثانية - فرض هذا النظام فى بيتى ، مع أنه لم يعترف لها أحد بذلك ضمن الأشياء الكثيرة التى عرفت عنها .

والمرة الأولى التى نظرت فيها إلى وجهها ، فى ذلك الحين ، لم يخل الأمر من بعض العنف بالنسبة لكلينا : فكل منا كان يعرف ما الذى سوف يقوله ، وكل منا كان يرنو للآخر خفية وكأنه يتجسس على حركته .

كنا وحدنا ، لكنه سيان : وحدنا منذ ساعة وكل لحظة تمر كان يبدو وكأن البدء فى الكلام سوف يكلف مجهودا أكبر . وكانت هى التى أطفأت النار :

- عدت أكثر سمنة .

- يمكن ...

- ومظهرك أكثر وضوحا .

- هذا ما يقولون ...

كنت أبذل جهدا داخليا حتى أظهر بمظهر الودود المجامل ، لكنى لم أستطع تحقيق ذلك : كنت مثل الأبله ، وكأنى مسحوق بوزن يثقل علىّ ، ولكنى مازلت أحتفظ لهذا الموقف بذكرى بصفته أحد أجمل الانطباعات التى مرت بى فى حياتى ، وبصفته

أحد الانطباعات التى سبب لى فقدها أسى كبيرا .
ـ كيف كان ذلك المجال ؟
ـ سيئا .
كانت تبدو وكأنها تفكر . من يدرى فى ماذا تفكر !
ـ هل تذكرت لولا كثيرا ؟
ـ أحيانا . لماذا أكذب ؟ بما أني كنت طول النهار أفكر ، فقد كنت أتذكر كل شىء . حتى أبو شداد ، تصورى ! كان يظهر على أمل بعض الشحوب .
ـ أنا سعيدة لأنك عدت .
ـ نعم ، ياأمل ، وأنا أيضا سعيد لأنك انتظرتنى .
ـ بماذا انتظرتك ؟
ـ نعم ؛ أم أنك لم تكونى تنتظريننى ؟
ـ من قال لك ذلك ؟
ـ انظرى ، كل شىء يُعرف !
اهتز صوتها ، ولم يلبث هذا الاهتزاز أن انتقل إلىّ .
ـ هل هى روساريو ؟

ـ نعم ، وهل فى هذا من سوء ؟
ـ لا شىء .
وأطلت الدموع من عينيها .
ـ ما الذى تصورته عنى ؟
ـ ماذا تريدين أن أتصور عنك ؟ لا شىء !
اقتربت منها ببطء وقبلت يديها . وهى تركت نفسها لأقبلها .
ـ أنا حر مثلك ، ياأمل .

....

ـ حر مثلما كان لى من العمر عشرون عاما .
كانت أمل تنظر إلىّ فى خجل .
ـ لست عجوزا ؛ لابد أن أفكر كيف أعيش
ـ نعم .

- فى إصلاح عملى ، وبيتى ، وحياتى ... هل حقيقة كنت تنتظريننى ؟
- نعم .
- ولماذا لم تقولى لى ذلك ؟
- لقد قلته لك .
هذا صحيح ؛ كانت قد قالته لى ، لكنى كنت أستمتع بجعلها تكرر هذا القول .
- قوليه لى مرة أخرى .
لكن أمل احمرت خجلا مثل "قرن شطة" . وأخذ صوتها يخرج متقطعا ، وشفتاها وأهداب الأنف ترتعشان مثل الأوراق التى تحركها نسمة الهواء ، ومثل زغب طائر الكنارى الذى ينتفش فى الشمس .
- كنت أنتظرك ، ياباسكوال . وكنت أصلى فى كل الأيام من أجل أن تعود سريعاً : وقد سمع الله دعائى .
- هذا صحيح .
عدت لأقبل يديها . كنت كأنى مُطفأ . لم أجرؤ على أن أقبِّلها فى وجهها .
- هل تريد ...، هل تريد ...؟
- نعم .
- هل تعرف ما كنت سأقول ؟
- نعم ، لا تواصلى .
صارت متألقة فجأة مثل طلوع الصبح .
- قبِّلنى ، ياباسكوال ...
غيرت من صوتها ، وصارت مُسَهَّدة ، وشبه بخيلة .
- لقد انتظرتك طويلا .
قبَّلتها بحرقة ، وبقوة ، فى حب واحترام لم أحس به أبدا مع أية امرأة ، وطويلا ، طويلا لدرجة أنى عندما ابتعدت عنها كان الحب المخلص قد ظهر علىّ .

كان قد مرَّ علينا في الزواج شهران عندما لاحظت أن أمي مازالت تستخدم نفس مهاراتها ونفس فنونها السيئة التي كانت تستخدمها قبل أن أدخل السجن . كان دمي يحترق من حركاتها التي تعبر دائما عن النفور من الناس والتوجس من ناحيتهم ، ومن أحاديثها الجارحة والمتعمدة دائما ، باللهجة التي كانت تحدثني بها دائما بطريقة مصطنعة ومتكلفة مثل كل أمور حياتها . وبالنسبة لزوجتي ، بالرغم من أنها كانت تتساهل معها ، وهل هناك حل غير هذا ! لم تكن تستطيع أن تراها حتى ولا في الصورة ولم تكن تخفي عدم إرادتها لها ، وذات يوم فاض الكيل بأمل ، سرحت على فترة بطريقة استطعت أن أرى من خلالها أنه ليس هناك من حل إلا الفصل بين الاثنتين بمسافات ، أو كما يقول الناس وضع أرض في المنتصف ، وهذا التعبير يقال عندما ينفصل اثنان ويعيش كل منهما في قرية بعيدة عن الأخرى ، ولكن يمكن أن يقال هذا أيضا عندما يكون بين الأرض التي يمشي عليها شخص والأرض التي ينام عليها آخر عشرون قدما من الارتفاع .

دارت في رأسي كثيرا فكرة الهجرة : كنت أفكر في لاكورونيا أو مدريد ، أو مدينة أقرب من الاثنتين ، في الاتجاه المؤدي إلى العاصمة ، ولكن الحال هو - ومن يدري هل بسبب الجبن أو بسبب العجز عن اتخاذ قرار ! - أن هذا الموضوع ظل يؤجل ، ويؤجل ، حتى جاءت لحظة انطلاقي في السفر ، لا مع أحد اللهم إلا أعضاء جسدي وحدها ، أو مع ذكرياتي فقط ، وكنت حينئذ أود لو وضعت الأرض في المنتصف ... الأرض التي لم تكن كبيرة

بما فيه الكفاية حتى أهرب من ذنبى ... الأرض التى لم يكن لها طول ولا عرض كاف حتى يجعلنى أتبدل أمام نداء ضميرى نفسه .

كنت أريد أن أضع أرضا بين ظلى وأنا ، بين اسمى وذكرياتى وأنا ، بين جلدى نفسه وبينى ، هذه الذات التى لو رفعنا عنها الظل والذكرى ، والاسم والجلد ، فلن يبقى لها إلا أقل القليل .

هناك أوقات يكون من الأفضل فيها أن يشطب الإنسان نفسه مثل الميت ، ويختفى فجأة وكأن الأرض قد ابتلعته ، ويتبخر فى الهواء مثل خيط من الدخان . إنها أوقات لا نحصل عليها ، ولكننا عند الحصول عليها تحولنا إلى ملائكة ، نحول دون أن نظل فى حمأة الجريمة والخطيئة ، وتحررنا من هذا الثقل الذى ينوء به اللحم الفاسد الذى - وأؤكد لك - لن نعود نذكره فى شىء - وهذا هو أسوأ ما فى الأمر - اللهم إلا إذا تكفل أحد بصورة دائمة بألا ننساه ، أحد يشغل نفسه بتذرية نفاياته الطافحة حتى يجرح حاسة الشم لدى الروح عندنا . ولا شىء يثير رائحة نتنة أو يكون شديد السوء أكثر من الجذام الذى يتركه الماضى السيىء فى الضمير ، مثل الألم الذى إن لم يخرج من منطقة السوء فإنه يؤدى إلى تعفن مستودع عظام الآمال الميتة ، بعد قليل من مولدها ، حيث هى كذلك حياتنا الحزينة منذ وقت طويل .

وفكرة الموت تأتى دائما مع خطوة ذئب ، ومسيرة حيَّة ، مثل كل التخيلات السيئة . والأفكار التى تزعجنا لا يمكن أن تأتى أبدا بشكل فجائى : فالشىء الفجائى يخنق لعدة لحظات ، لكنه بعد أن يمضى عنا ، يترك لنا سنوات طويلة من الحياة أمامنا . فالأفكار التى تؤدى بنا إلى الجنون ، إلى أسوأ أنواع الجنون ، وهو جنون الحزن ، تأتى دائما شيئا فشيئا ودون أن نحس بها ، ودون أن نحس يغزو الضباب الحقول ، أو السعال الصدور . يتقدم ، لا محالة ، فى غير تعب ، لكن ببطء ، وعلى مهل ، ومنتظما مثل النبض . اليوم لا نلاحظ ذلك : غدا أيضا ، ولا بعد غد ، ولا خلال شهر كامل . ولكن هذا الشهر يمضى فنبدأ نحس

بمرارة الأكل ، وألم التذكر ؛ لقد لدغنا . وبمرور الأيام والليالى تحيط بنا مشاعر النفور ، والعزلة ؛ وتطبخ الأفكار فى رءوسنا ، هذه الأفكار التى لابد أن تؤدى إلى أن تقطع هذه الرأس التى نمت فيها ، ومن يدرى فربما يكون ذلك لكى لا يستمر المرء فى العمل بفظاعة . وربما نظل أسابيع كاملة دون أن نتغير ؛ والذين يحيطون بنا يتعودون على جهامتنا ولا يستغربون حتى من غرابتنا نفسها . ولكن السوء يكبر ذات يوم ، مثل الأشجار ، ويسمن ، وهنا لا نقدم للناس التحية ؛ ويبدأ الناس يحسون بأن فينا غرابة أو أننا مثل المحبين . ونمضى مع الجنون ، مع الجنون ، وتصير ذقننا المنتفشة كل يوم أكثر ذبولا . ونبدأ نحس بالكراهية التى تقتلنا ؛ ولا نعود نتحمل أن ينظر إلينا أحد ؛ ويؤلمنا الضمير ، ولكن ، لا يهم ! فمن الأفضل أن يؤلم ! وتحرقنا العينان ، اللتان تمتلآن بماء مسمم عندما ننظر بقوة . ويلاحظ العدو رغبتنا ، لكنه واثق ؛ فالحس لا يكذب . إن التعاسة فرحة ، مرحِّبة ، ونحن نستمتع بألذ الأحاسيس عندما نجعلها تزحف على ميدان واسع من الزجاج يصبح فى النهاية هو روحنا وعندما نهرب مثل الأيائل ، وعندما يتخطى السمع أحلامنا ، يكون قد أحاط بنا الشر : ولم يعد ثمة حل ، ولم يعد فى الإمكان إصلاح ذات البين . ونبدأ فى السقوط ، بلا هوادة ، حتى لا نعود إلى النهوض فى هذه الحياة . وربما لكى ننهض قليلا فى الساعة الأخيرة قبل أن نسقط برأسنا فى أغوار الجحيم ... شىء سيىء .

كانت أمى تحس برضا شديد فى اختبار طبيعتى التى كان الشر ينمو فيها مثلما يكبر الذباب على رائحة الموتى . فالصفراء التى تجرعتها قد سممت لى القلب ، الذى انتشرت فيه الأفكار السيئة جدا فى ذلك الحين ، حتى أنى أمسيت مفزوعا من شجاعتى نفسها . لم أكن أريد أن أراها ؛ وكانت الأيام تمضى متساوية يوما بعد آخر ، بنفس الألم المتغلغل فى الأحشاء ، ونفس نُذُر العاصفة التى تلقى بغمامة على بصرنا .

في اليوم الذى قررت فيه أن أستخدم الحديد كنت فى حالة تعب شديدة ، متأكدا تماما من أنه لابد من إراقة دماء الشر ، أما فكرة موت أمي فلم تؤد إلى تغيير النذر اليسير من نبضات قلبى . كان أمرا محتوما لابد أن يأتى وقد أتى ، وأنا لابد أن أتسبب فيه ولا يمكن أن أتجنب ذلك مهما أردت ، لأنه كان يبدو لى مستحيلا أن أغير من رأيى ، وأن أعود إلى الوراء ، وأتجنب ما أنا مستعد الآن لأن أقدم فيه يدى فداء لو أنه لم يقع . ولكننى فى ذلك الحين كنت أستمتع بإثارة هذا الموضوع بنفس الحساب ونفس التأمل الذى يستخدمه ، على الأقل ، أحد الفلاحين ليفكر فى محصوله من القمح .

كان كل شىء معداً ؛ وقد قضيت ليالى كاملة طويلة أفكر فيه لكى أشجع نفسى ، ولكى أتسلح بالقوة : شحذت السكين فى الصخر ، بحده الطويل العريض مثل ورق الذرة ، ومقبضه من الصدف الذى يمنحه صفة التحدى . ولم يكن يبقى حينئذ إلا تحديد الموعد ، وبعد ذلك لا تردد ، ولا عودة إلى الوراء ، وإنما وصول إلى النهاية وليكن ما يكون والالتزام بالهدوء ...، ثم الجرح ، الجرح بدون تألم ، وبسرعة ، ثم الهرب ، الهرب بعيدا جدا ، إلى لاكورونيا ، الهرب إلى حيث لا أحد يمكنه أن يكتشف ذلك ، حيث أستطيع أن أعيش فى سلام منتظرا نسيان الناس ، هذا النسيان الذى يتركنى أعود لأبدأ الحياة من جديد .

إن ضميرى لن يؤنبنى : ليس هناك سبب لذلك . فالضمير يؤنب فقط على المظالم المرتكبة : ضرب طفل ، إسقاط خُطَّاف ، ولكن هذه الأعمال التى يكون الباعث من ورائها هو الكراهية ، والتى نمضى إليها مثل المنومين بفكرة متسلطة علينا ، لا ينبغى أن نندم عليها أبدا ، ولا يؤنبنا عليها الضمير إطلاقا .

كان ذلك يوم ١٠ فبراير عام ١٩٢٢ . وقد توافق مع يوم جمعة فى ذلك العام ، العاشر من فبراير . كان الجو صحوا وهو ما يحدث دائما فى هذا البلد ؛ والشمس ساطعة ، وفى الميدان على

ما أذكر كان هناك فى ذلك اليوم عدد كبير من الأطفال يلعبون "الحجلة" أو "الاستغماية" . وقد فكرت كثيرا فى ذلك لكنى حاولت أن أنتصر على نفسى ونجحت فى هذا : فالعودة إلى الوراء أصبحت من المستحيل ، ويمكن أن تكون شؤما بالنسبة لى ، ويمكن أن تؤدى بى إلى الموت ، ومن يدرى فربما إلى الانتحار . وربما كان سينتهى بى الأمر إلى أن يعثر علىّ الناس غريقا فى أعماق نهر وادى يانة ، أو صريعا تحت عجلات القطار ... كلا ، لم يكن من الممكن أن أتراجع ، لابد من الاستمرار ، للأمام دائما ، حتى النهاية . كانت إذن مسألة حب الذات .

ولعل زوجتى لاحظت علىَّ شيئا .

- ماذا ستفعل ؟

- لا شىء ، لماذا ؟

- لا أدرى ؛ يبدو وكأنك فى وضع غريب .

- كلام فارغ !

قبلتها ، حتى أطمئنها : كانت آخر قبلة أعطيتها لها . كم كنت بعيدا عن إدراك هذا فى ذلك الحين ! ولو أنى أدركت ذلك لترددت .

- لماذا تقبِّلنى ؟

تركنى هذا السؤال جامدا .

- ولماذا لا أقبّلك ؟

وقد جعلتنى كلماتها أفكر كثيرا . كانت تبدو وكأنها تعرف كل ما سوف يحدث ، وكأنها كانت فى نهاية الشارع .

وقد ظلت الشمس فى نفس المكان مثل كل الأيام . وجاء الليل ...، تناولنا طعام العشاء ...، ثم ذهبا إلى السرير ...، وأنا بقيت ، كالعادة ، ألعب بجمرة المكان . ومنذ وقت طويل لم أكن أذهب إلى حانة مارتينيت .

وجاءت الفرصة ، الفرصة التى ظللت أنتظرها وقتا طويلا .

كان لابد من التغلب على الخوف ، الانتهاء بسرعة ، بأقصى سرعة ممكنة . فالليل قصير ، وفى الليل لابد وأن يتم كل شىء ، وينبغى أن يطلع الصباح وأنا على بُعد فراسخ طويلة من القرية .

ظللت أتسمع لحظة طويلة . لم يكن يسمع شىء . ذهبت إلى حجرة زوجتى ؛ كانت نائمة ، وقد تركتها فورا نائمة . وكانت أمى تنام أيضا فى حالة اطمئنان كاملة . عدت إلى المطبخ ؛ خلعت حذائى ؛ كانت الأرضية باردة ، وحجارة الأرضية تتسمر عند أنامل رجلى . أخرجت السكين من غمده ، كان يشع بريقا مثل بريق الشمس .

كانت هناك ، مستلقية تحت الملاءات ، ووجهها ملتصق تماما بالمخدة . لم يكن أمامى إلا أن ألقى بنفسى على الجسم وأطعنه بالسكين . لن تتحرك ، لن تطلق صرخة واحدة ، فلن تجد الوقت لذلك ... كانت فى متناول الذراع ، نائمة بعمق ، خالية البال - يا إلهى ، كم يكون المقتولون دائما فارغى البال بينما القدر لهم بالمرصاد ! مما سوف يحدث لها . كنت أريد أن أحسن الأمر ، ولكنى لم أستطع بعد الوصول إلى ذلك ؛ وحدث مرة أن رأيت ذراعى يرتفع ، لكنه عاد ليسقط مرة أخرى على امتداد الجسم .

فكرت أن أقفل عينى وأضرب . لا يمكن أن يكون ؛ فالضرب فى العمى مثل عدم الضرب ، معناه أن يضرب المرء فى الخلاء ... لابد من الضرب والعينان مفتوحتان جيدا ، والحواس الخمس مركزة كلها فى الضربة . كان لابد من الاحتفاظ برباطة الجأش ، واستعادة رباطة الجأش التى بدا أنها بدأت تضيع أمام رؤية جسد أمى ... كان الوقت يمر وأنا مازلت هناك ، واقفا ، ثابتا مثل تمثال ، دون أن أقرر النهاية . لم أكن أجرؤ ، فبالرغم من كل شىء هى أمى ، أمى التى ولدتنى ، ومن أجل هذا فقط كان يجب أن

أسامحها ... كلا : لا أستطيع أن أسامحها لأنها ولدتنى . فبعد أن ألقتنى إلى العالم لم تقدم لى أى معروف ، أى معروف على الإطلاق ... لم يعد أمامى وقت لأضيعه . كان لابد أن أحسم الأمر مرة واحدة . وجاءت لحظة كنت فيها واقفا وكأنى نائم ، بالسكين فى يدى مثل صورة عن الجريمة ... كنت أحاول أن أنتصر على نفسى ، أن أستعيد قوتى ، وأن أركزها . كنت أتحرق رغبة فى أن أنتهى فجأة ، بسرعة ، وأن أخرج جريا حتى أسقط منهكا فى أى ركن . كنت خائر القوى ، فلقد بقيت ساعة طويلة بجانبها ، وكأنى أحرسها ، وكأنى أسهر على رعايتها . بينما أنا قد ذهبت لأقتلها ، لأقضى عليها ، لأخلع عنها الحياة بالطعنات .

وربما مرت ساعة أخرى . كلا ؛ بشكل نهائى ، كلا . لم أكن أستطيع ؛ كان شيئا يعلو على قواى ، شيئا يهيج دمى . فكرت أن أهرب . وربما أحدث ضجة عند خروجى ؛ سوف تستيقظ ، وتتعرف علىّ . لا ، لم أكن أيضا أستطيع أن أهرب ؛ كنت أمضى بلا رحمة فى طريق الانهيار ... لم يكن هناك حل إلا أن أطعن بلا شفقة ، بسرعة ، حتى أنتهى فى أسرع وقت ممكن . لكنى لم أستطع أيضا أن أطعن ... كنت كأنى واقع فى ورطة أغرق فيها شيئا فشيئا بدون أى علاج ممكن ، بدون مخرج ممكن . وكان الطين يصل حتى رقبتى . كنت سأموت مخنوقا مثل قط ... وكان من المستحيل تماما بالنسبة لى أن أقتل ؛ صرت مثل المشلول .

استدرت دورة لكى أمشى . كانت الأرضية تصر . وتحركت أمى على السرير .

ـ من هناك ؟

عندئذ أدركت أنه لم يعد هناك حل . اندفعت نحوها وضغطت عليها . قاومت ، ثم انتهت ... وكان هناك لحظة استطاعت خلالها أن تمسكنى من رقبتى ، وأخذت تصيح مثل امرأة محكوم عليها . تصارعنا . كان أفظع صراع يمكن أن تتخيله سيادتك . زأرنا مثل حيوانات متوحشة ، وكان اللعاب يطل على شدقينا ... وفى دورة

من الدورات رأيت زوجتى ، بيضاء مثل ميتة ، واقفة على الباب دون أن تجرؤ على الدخول . كانت تحمل قنديلا فى يدها ، وهو القنديل الذى استطعت أن أرى وجه أمى على ضوئه ، بنفسجيا مثل ثوب راهب من الناصرة ... واصلنا المعركة ؛ تمزقت هدومى ، وصار صدرى فى الهواء . كانت المحكوم عليها تمتلك قوة مثل قوة الشيطان . اضطررت أن أستخدم كتفى كله كى تظل ساكنة . خمس عشرة مرة و أنا أفعل ذلك وخمس عشرة مرة وهى تفلت منى . كانت تجرحنى بأظافرها ، وتركلنى ، وتوجه الىّ لكمات ، وتعضنى . وفى لحظة استطاعت أن تصطاد حلمة صدرى الأيسر وانتزعتها بقوة ، وكانت هى اللحظة نفسها التى استطعت خلالها أن أوجه لها طعنة بالسكين فى حلقها ..

جرى الدم بغزارة ولطخ وجهى . كان ساخنا مثل الفضلات ومتدفقا مثل دم شاة .

دفعتها وخرجت هاربا . اصطدمت بامرأتى عند الخروج ، انطفأ منها القنديل . توجهت إلى طريق الحقول وجريت ، جريت بدون توقف خلال ساعات كاملة . كانت الحقول منعشة وجرى فى أوردتى إحساس وكأنه شعور بالراحة .

كان يمكن أن أتنفس ...

مذكرة أخرى للناسخ

إلى هنا انتهت الأوراق المخطوطة لباسكوال دوارتى . فقد حمل إلى المشنقة بعد ذلك مباشرة ، أو لو أنه وجد وقتاً قبل هذا ليكتب عن أحداث أخرى ، ثم فقدت الأوراق ، فهذا أمر لم أتوصل إلى توضيح له رغم كل مابذلت من جهد .

لقد قدم لى حامل الليسانس السيد بينيجنو بونيلا صاحب صيدلية المندراليخو التى عثرت فيها ، كما ذكرت من قبل ، على ما قدمته مكتوبا في الصفحات السابقة ، كل أنواع التسهيلات لمواصلة البحث عن الأوراق . وقد قلبت الصيدلية مثلما يقلب المرء جوربا ، ونظرت حتى فى قوارير الصينى ، وخلف الزجاجات ، وفوق ـ وتحت ـ الدواليب ، وفى صندوق البيكربونات . تعلمت أسماء جميلة ـ مرهم ابن زكريا ، لراعى الأبقار والحوذى ، للسمك والراتيننج ، لخبز الخنزير ، وحبة الغار ، نالاحسان ، ضد أحد أمراض قطعان الضأن ـ وقد سعلت أمام رائحة المستردة (الخردل) ، وارتعشت عند الفاليريانا (حشيشة الهر) ودمعت عيناى مع النشادر ، ولكن على كثرة ما قمت به من دوران ، وكثرة ما وجهت من دعوات إلى القديس أنطونيو كى يضع شيئا فى متناول يدى ، فلابد أن هذا الشىء لم يوجد إطلاقا لأنى لم أعثر له على أثر .

إن هذا النقص المطلق فى المعلومات عن السنوات الأخيرة لباسكوال دوارتى يُعد عائقا ليس بالهين . وإذا آمنا بعملية حسابية ، وهى غير صعبة ، فإن ما يبدو واضحا هو أنه قد خاض

من جديد إلى سجن شنشيلا (ويستدل على ذلك من كلماته نفسها) ولابد أنه استمر هناك حتى عام ٣٥ أو من يدرى فربما حتى عام ٣٦ . ومع ذلك يبدو مستبعدا أنه خرج من الحبس قبل أن تبدأ الحرب . أما الموضوع الذى لا توجد أية طريقة بشرية للتحقق منه فهو المتعلق بتصرفه خلال الخمسة عشر يوما من الثورة التى مرت بقريته : وإن كنا نستثنى من ذلك مقتل السيد جونثاليث دى لاريفا ـ حيث كان صاحبنا هو مرتكب هذا الفعل والمعترف به ـ ولا شىء غير ذلك ، لا شىء على الإطلاق ، لم نستطع أن نعرف شيئا عنه . وحتى عن هذه الجريمة ، المؤكدة ، المنتهية والواضحة . لكننا نجهلها . لأن باسكوال استمرأ الصمت ولم يقل هذا الفم هو فمى إلا عندما أراد ذلك ، وهذا لم يحدث إلا فى مرات قليلة جدا لأسباب اعتمد عليها وبواعث دفعته إلى ذلك . ولعل تنفيذ الحكم عليه لو تأجل بعض الوقت لوصل فى مذكراته حتى هذه النقطة وتناولها بكثير من التوسع ، ولكن المؤكد هو أن هذا لم يحدث ، ومن ثم فإن الحلقة المفقودة للأيام الأخيرة من حياته لا يمكن ملؤها إلا بواسطة القصة والشعر الشعبى وهو حل لا يتفق مع مصداقية هذا الكتاب .

ولابد أن خطاب باسكوال دوارتى للسيد خواكين باريرا قد كتب فى الوقت الذى كان يحرر فيه الفصلين الثانى عشر والثالث عشر ، وهما الفصلان الوحيدان اللذان استخدم فيهما حبرا بنفسجيا ، يشبه الحبر المستخدم فى خطابه للسيد المذكور ، مما يبرهن على أن باسكوال لم يوقف حكايته بشكل نهائى كما قال ، وإنما أعد الخطاب بعناية شديدة حتى يظهر تأثيره فى الوقت المناسب ، وهذا الاحتراس يدلنا على أن هذه الشخصية ليست كثيرة النسيان ولا تنطوى على نوع من الجنون مثلما تبدو للوهلة الأولى . أما الشىء الواضح تماما ، لأنه نقل إلينا بواسطة أونباشى الحرس المدنى ثيسلريو مارتين ، الذى تلقى

الأمر ، فهو الطريقة التى نقلت بها حزمة الأوراق من سجن بطليوس إلى بيت السيد باريرا فى ماردة .

ونظرا لرغبتى فى أن أوضح قدر الإمكان اللحظات الأخيرة من حياة الشخصية توجهت بخطاب إلى السيد سانتياجو لورونيا ، قسيس السجن فى ذلك الحين ، والآن مسئول كنيسة فى ماجاثيلا (بطليوس) وإلى السيد ثيساريو مارتين ، عضو الحرس المدنى المعين فى سجن بطليوس فى ذلك الحين . والآن أونباشى قائد فى منطقة ڤيثيلا (ليون) ، وكلاهما كانا بحكم وظيفتهما قريبين من المجرم عندما كان يوفى بديونه تجاه العدالة .

وهاتان هما الرسالتان :

ماجاثيلا (بطليوس) ، فى ٩ يناير عام ١٩٤٢ .

سيدى العزيز المستحق لكل التبجيل :

وصلتنى فى هذه اللحظات ، وبتأخير واضح ، رسالتك الكريمة المؤرخة فى ١٨ من شهر ديسمبر الماضى ، وبها الـ ٣٥٩ ورقة المكتوبة على الآلة وتتضمن مذكرات البائس دوارتى . وقد بعث لى بكل هذا السيد داڤيد فرير أنجولو ، المسئول الحالى عن سجن بطليوس ، وزميلى فى سنوات الشباب بالفصل الدراسى فى سلمنقة . أريد أن أهدى صيحات ضميرى بنسخ هذه الكلمات بمجرد فتح الظرف ، وأترك ذلك للغد إن شاء الله ، وذلك بعد أن قرأت متبعا تعليماتك ومدفوعا بالفضول الحزمة التى بطرفى .

(يتبع يوم ١٠)

قرأت منذ قليل قراءة سريعة ، بالرغم من أن هذه ـ كما يقول هيرودوت ـ ليست طريقة نبيلة للقراءة ، اعترافات دوارتى ، ولا تتصور سيادتك الانطباع العميق الذى تركته فى روحى ، والأثر الشديد ، والحفر الواضح الذى أحدثته فى نفسى . وبالنسبة لخادم تلقى كلمات الندم الأخيرة له بنفس المتعة التى يتلقى بها الفلاح محصوله الطيب ، فإن قراءة ما كتبه هذا الرجل الذى ربما يُصوَّر للأغلبية من الناس على أنه ضبع (مثلما تصورته أيضا

عندما استدعيت إلى زنزانته) بالرغم من أننا عندما نفحص أعماق روحه يمكن أن نتأكد من أنه ليس أكثر من حمل وديع ، محاصر ومصاب بالرعب من هذه الحياة ، أقول إن قراءة هذا المكتوب لا تخرج منها إلا بانطباع فى غاية القوة .

كان موته نموذجا للاستعداد ولم يكن ذلك إلا فى اللحظة الأخيرة ، عندما زايله الشعور بالحماس ، لقد تمزق كثيرا ، مما جعل البائس يعانى روحيا بشكل كان يمكن أن يتفاداه لو أتيح له قدر أكبر من الشجاعة .

لقد ربط أعمال النفس بالهدوء ورباطة الجأش مما جعلنى مذهولا ، ونطق أمام الجميع ، عندما جاءت لحظة إدخاله إلى الساحة جملة "فلتمض إرادة الله" ، وهذا جعلنا أيضا نتعجب من تواضعه المهذب . خسارة أن العدو سرق منه لحظاته الأخيرة ، وإلا ، فقد كنت متأكدا أن موته يشبه موت القديسين ! لقد كان موته نموذجا لكل من شاهدوه ! (حتى فقد السيطرة على نفسه . كما أقول) كما كانت له نتائج طيبة بالنسبة لمهنتى كطبيب أرواح فقد استفدت من كل ما رأيت . وأدعو الله أن يدخله فى مستقر رحمته :

وتقبل ، ياسيدى ، أطيب التحيات التى يبعث بها إليك المتواضع .

س . لورونيا ، بريسبترو

ب . د . أنا آسف لأنى لم أستطع أن أحصل لك على الصورة الفوتوغرافية ولا أدرى أيضا ماذا أقول لك حتى تتصرف فى هذا الأمر .

واحدة . والأخرى .

فيثيلا (ليون) ، ١٢ ـ ١ ـ ٤٢

سيدى العزيز :

وصلتنى رسالتك المؤرخة فى ١٨ ديسمبر ، وأنا إذ أرسل إليك هذه الرسالة أدعو لك بالصحة والعافية . أما عنى فإنى أحمد الله

كثيرا ، وإن كنت متيبسا مثل عصا في هذا المناخ الذي لا نتمناه حتى لأكثر الناس إجراما . والآن أخبرك بما طلبته مني ، ذلك لأن ليس هناك أي سبب في الخدمة يمنعني من ذلك ، ولو وجد هذا المانع فإنك كنت ستلتمس لي العذر لأني في هذه الحالة لم أكن أستطيع أن أقول كلمة واحدة . وفيما يتعلق بالمذكور باسكوال دوارتي الذي تحدثني عنه أعتقد أني مازلت أذكره . لأنه كان أشهر سجين عندنا فحفظنا اسمه فترة طويلة . وبالنسبة لصحته العقلية لا أستطيع أن أثق فيها حتى ولو قدموا لي الدورادو لكي يقنعني بذلك ، لأن كل الشواهد كانت تؤكد مرضه . وقبل أن يعترف أي اعتراف كان كل شيء على مايرام . ولكنه عندما فعل ذلك للمرة الأولى عرفنا أن الشكوك ونوبات الندم بدأت تهاجمه ، كان يريد أن يتطهر بالتوبة : في أيام الاثنين لأن أمه ماتت في ذلك اليوم ، وأيام الثلاثاء ، لأنه اليوم الذي قتل فيه كوندي توريميخا . وأيام الأربعاء ، لأنه اليوم الذي مات فيه لا أدري من . والحال أن البائس كان يقضي نصف الأسبوع تقريبا لا يذوق طعم لقمة بإرادته ، حتى ذهب لحمه ، مما يجعلنا نتصور أن الجلاد لم يبذل جهدا كبيرا عند وضع الدولبين في وسط الحلقوم . وهذا البائس جدا كان يقضي الأيام في الكتابة ، وكأنه مصاب بحمى ، وبدا أنه لم يكن يضايق أحدا . وبما أن المدير كان طيب القلب فقد أمرنا بأن نمده بما يحتاج إليه حتى يواصل الكتابة ، ومن هذا ازداد الرجل ثقة ولم يكن يطرف لحظة . وفي إحدى المرات ناداني ، وأراني رسالة داخل ظرف مفتوح (وقال لي حتى تقرأها سيادتك ، إذا أردت) كانت موجهة إلى السيد خواكين باربرا لوبيث ، في ماردة ، وقال لي في لهجة لم أعرف أبدا هل كانت توسلا أم أمرا :

ـ عندما يحملونني ، خذ سيادتك هذه الرسالة ، ورتب قليلا هذا الركام من الورق ، وسلمه كله إلى هذا السيد . فاهمني ؟

وأضاف بعد ذلك وهو ينظر إلى عيني ، وقد وضع سره هذا في

نظرته التى أفزعتنى :
- إن الله سوف يجزيك ...، لأنى سوف أطلب منه ذلك .
وقد أطعته ، لأنى لم أر سوءا فى هذا ، ولأنى كنت دائما أحترم رغبات الموتى .
وفيما يتعلق بموته ، ينبغى أن أقول لك فقط إنه كان عاديا تماما وبائسا ، وبالرغم من أنه فى البداية كان يبدو هادئا ، ونطق أمام كل الناس جملة "كله بإرادة الله" مما جعلنا مندهشين ، إلا أنه نسى فجأة كيف يحتفظ برباطة جأشه . وعندما رأى سقالة الإعدام أغمى عليه ، ولما عاد إلى وعيه كان يطلق أصواتا تقول إنه لا يريد أن يموت . وأن ما يفعلونه معه ليس من العدل ، ومن ثم فقد نقل رغم أنفه إلى الدكة . وهناك قبّل لآخر مرة الصليب الذى أخرجه له الأب سانتياجو ، وكان هو المسئول الدينى فى السجن ولا يكاد يختلف عن القديسين فى شىء ، وقد انتهت أيام باسكوال وهو يبصق ويضرب الأرض برجله ، دون أية عناية من جانب المحيطين به ، وبأكثر الطرق حطة وسفالة مما يمكن أن ينتهى به إنسان ، وهو يظهر للجميع خوفه من الموت .
وأنا أرجوك إذا كان هذا فى الإمكان أن ترسل لى نسختين من الكتاب ، بدلا من نسخة واحدة ، عندما تطبع هذه الأوراق . والنسخة الأخرى ستكون من أجل الملازم الأول للصف الذى طلب منى أن أدفع له ثمن الكتاب ، وذلك إذا كان هذا يناسبك .
ولعلى أكون قد شفيت بعض ما فى نفسك ، وتقبل تحيات .
ثيساريو مارتين
تأخرت فى تسلم رسالتك وهذا هو السبب الذى أدى إلى وجود فرق كبير بين تاريخ كل من الرسالتين . لقد أرسلت إلى من بطليوس ، وتسلمتها هنا يوم ١٠ ، السبت ، أو أول أمس .
فماذا أستطيع أنا أضيف إلى ما قاله هذان السيدان ؟
مدريد ، يناير عام ١٩٤٢

روايات الهلال تقدم

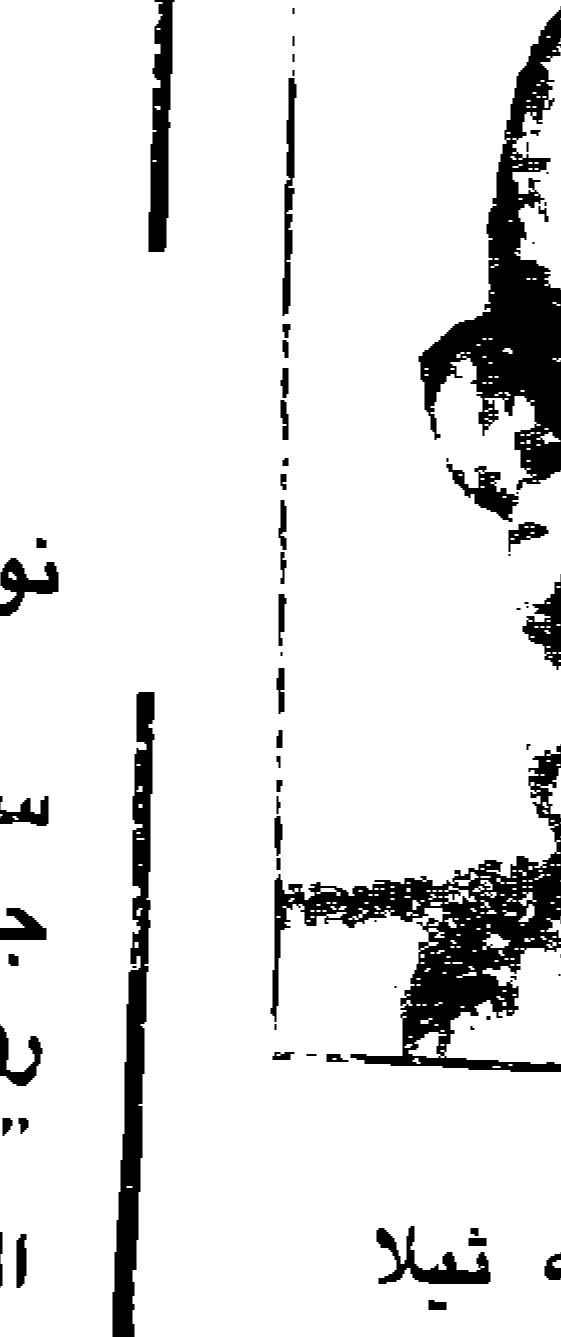
خديجة وسوسن

بقلم :

رضوى عاشور

تصدر : ١٥ ديسمبر ١٩٨٩

رقم الايداع : ٨٢٧٣ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٤٥٥ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN



كاميلو خوسيه ثيلا

هو الكاتب الذى لمع اسمه فجأة فى الشهر الحالى عقب فوزه بجائزة نوبل فى الأدب عن روايته "عائلة باسكوال دوارتى" التى نترجمها كاملة

ولد فى عام ١٩١٦ من أب اسبانى ، وأم انجليزية

[illegible] عنه غزارة الانتاج فقد كتب الرواية ، والمسرحية ، وفى أدب الرحلات ، وفى المقالات . ومن أهم أعماله الأخرى "الخلية" . و"رحلة الى القرية" ، و"قاموس المتعة"

اكدت اكاديمية ستكهولم ان أهميته ككاتب أنه يمتلك روحا قلقة . تمتزج فيها حرية [illegible] الواضحة فى التجريب مع الموقف المؤثر .

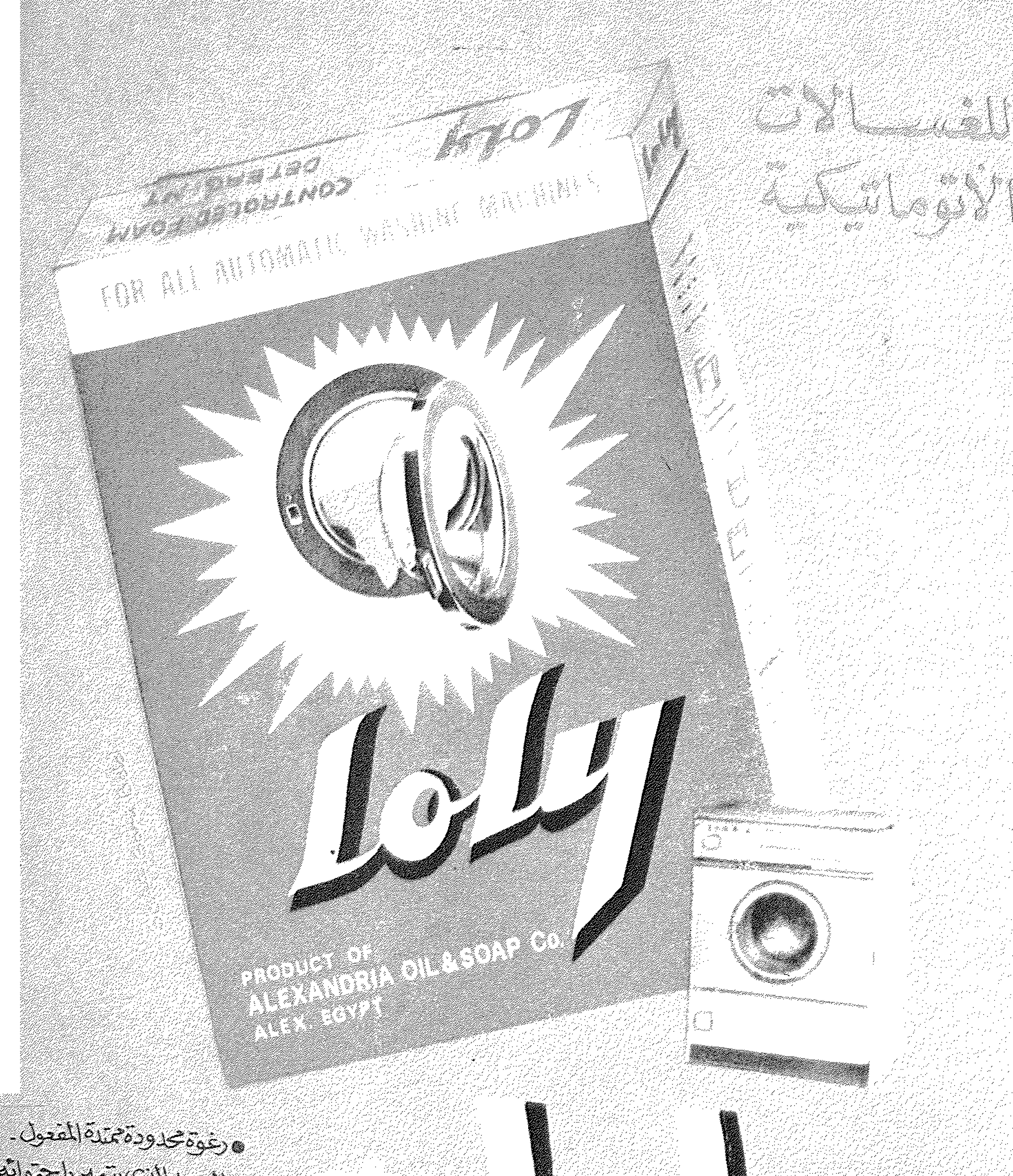
هــذه الـروايــة

ومرة اخرى نقدم رواية فائزة بجائزة نوبل عقب اعلان فوزها بايام قليلة

لقد جاء فى حيثيات اكاديمية ستكهولم أن كاميلوخوسيه ثيلا قد منح جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٩ عن رواية "عائلة باسكوال دوارتى" انها "رواية خشنة" فظيعة فى بعض المشاهد ، وبالرغم من فرض الرقابة عليها وتحريمها فقد كان لها صدى غير مسبوق ، لدرجة انها تعتبر بعد الكيخوتة (دون كيشوت) اكثر رواية مقروءة فى الأدب الأسبانى

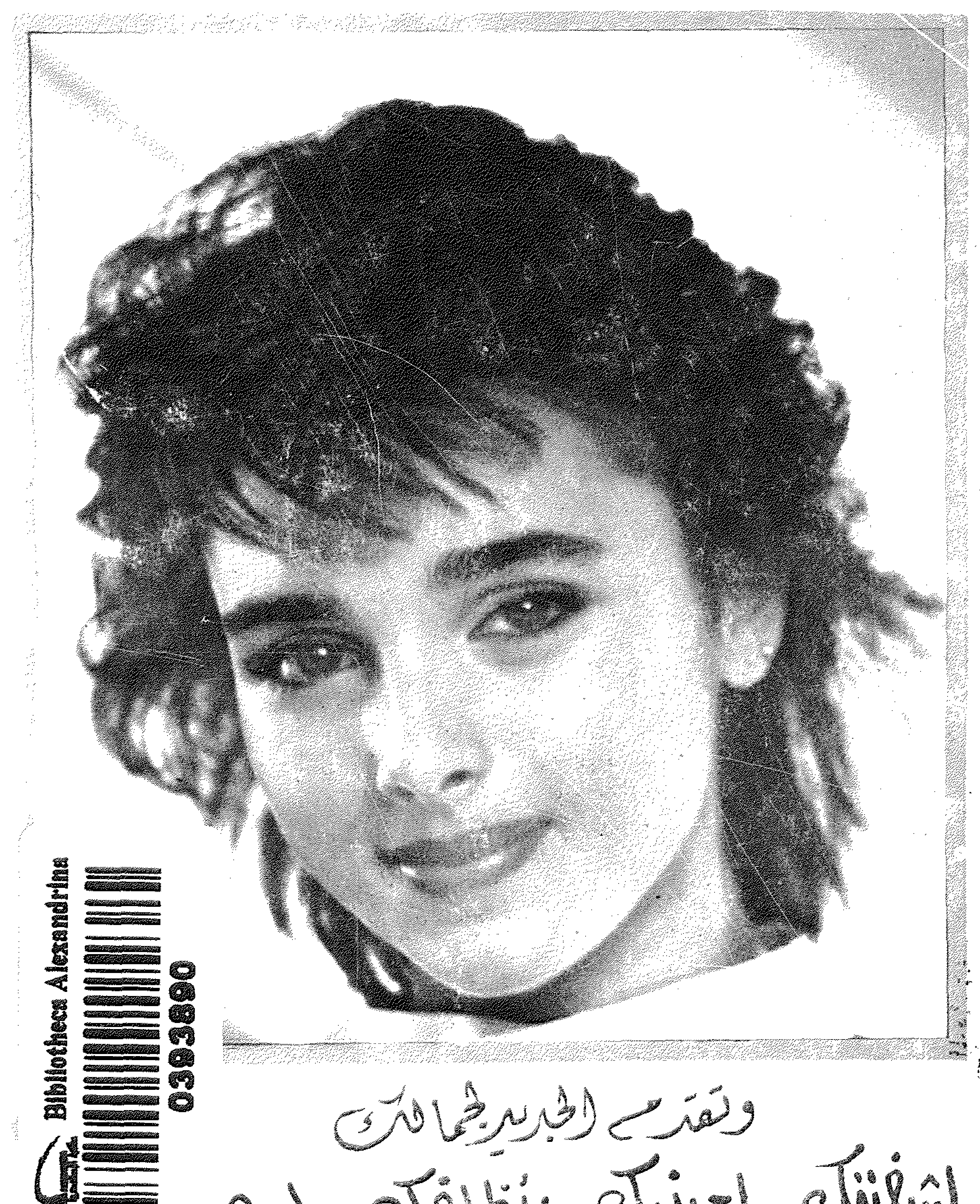
وباسكوال دوارتى انسان دفعته الظروف إلى ارتكاب مجموعة من الجرائم كان آخرها قتل امه . لقد اصبح مجرما رغم أنفه .

باسكوال نموذج انسانى استطاع أن يحصل على جائزة نوبل ولذا فإننا يهمنا أن نقدم هذا النموذج بصرف النظر عما يقال عن الكاتب حيث لا يجوز أن نعزل انفسنا عما يجرى فى العالم ، ايا كانت الحجج والذرائع .


للغسالات
الأتوماتيكية
LOLY
CONTROLLED FOAM
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
لولى
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT

ياماندا

ألوان تتألق شباباً



وتقدم الجديد لجمالك

لشفتيك .. لعينيك .. لأظافرك .. لوجهك